

الظلمات والنور في القرآن الكريم

(دراسة معجمية موضوعية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ

موقع رحى الحرف

الظلمات والنور
في القرآن الكريم
(دراسة معجمية موضوعية)

عبد المجيد بن محمد بن علي الغيلي

٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ

موقع رحي الحرف

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

الظلمات والنور في القرآن الكريم (دراسة معجمية موضوعية)، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ٢٠١٣م / ١٤٣٤هـ، منشور على موقع المؤلف: رحي الحرف، ص ...

الفهرس:

الفهرس:	٣
مقدمة:	٨
المبحث الأول: النور والضياء في القرآن الكريم (مدخل معجمي)	١٠
.....	١٠
خلاصة الدلالات:	١٠
المطلب الأول: النور والضياء لدى اللغويين:	١٢
المطلب الثاني: (الضياء) في القرآن الكريم:	١٣
أضاء:	١٣
جعل الشمس ضياء:	١٣
يأتيكم بضياء:	١٤
تعريف الضوء والضياء:	١٦
آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء:	١٨
المطلب الثالث: النور في القرآن الكريم:	٢٢
الخاصة الأولى: إظهار الأشياء	٢٣
الخاصة الثانية: إظهار الشيء الذي كان في ظلمة.	٢٧
الخاصة الثالثة: (الاهتداء به).	٢٨
مفهوم الإبصار، والفرق بينه وبين البصائر:	٣٠
المبحث الثاني: الظلمات والنور (مدخل موضوعي)	٣٣
المطلب الأول: وجعل الظلمات والنور:	٣٣
الظلمة الأولى: ظلمة الخلق الأول.	٣٥
الظلمة الثانية: ظلمة الدنيا	٣٦
مظاهر ظلمة الدنيا:	٣٦

٣٧ جعل الله النورَ نوراً على نور:
٣٧ كيف نور الله السماوات والأرض:
٣٨ ظلمات تلف النفس:
٤١ الظلمة الثالثة: ظلمة القيامة.
٤٣ وجعل النور:
٤٤ مثل الظلمات والنور في الدنيا:
٤٦ المطلب الثاني: يهدي الله لنوره/بنوره:
٤٨ الأول: نور الهداية
٥١ الثاني: نور الغاية
٥٣ الخلاصة:
٥٥ المطلب الثالث: يخرجكم من الظلمات إلى النور:
٥٥ (مع المفسرين):
٥٧ التحقيق في الآية:
٥٨ (١): ظلمات النفس في الدنيا:
٥٨ (٢): النور المنزل لإذهاب تلك الظلمة:
٦٠ (٣): النور المنزل نور ابتلائي اختياري:
٦١ (٤): إتمام النور في الظلمة الثالثة:
٦٢ (٥) الإخراج إلى النور حقيقة:
٦٤ (٦): طبيعة النور التام في الجنة:
٧٠ (٧): الحمد لله الذي هدانا لهذا:
٧١ (٨): وما يستوي الأعمى والبصير:
	المبحث الثالث: تفسير آية النور (الله نور السماوات والأرض)
٧٢ (مدخل تفسيري)
٧٣ المطلب الأول: دلالات الألفاظ:

- ٧٣ /١ (الله نور السماوات والأرض):
- ٧٣ (أ) أوجه إسناد الألفاظ إلى الله تعالى:
- ٨٠ (ب) التحقيق في وجه إسناد (نور) إلى الله:
- ٨٤ /٢ (كمشكاة):
- ٨٦ /٣ (كمشكاة فيها مصباح):
- ٨٧ /٤ (المصباح):
- ٨٩ /٥ (الزجاجة):
- ٩٠ /٦ (كوكب دُرِّي):
- ٩٢ /٧ (يوقد):
- ٩٣ /٨ (يوقد من شجرة):
- ٩٦ /٩ (من شجرة):
- ٩٧ /١٠ (مباركة):
- ١٠٠ /١١ (زيتونة):
- ١٠٤ /١٢ (لا شرقية ولا غربية):
- ١٠٦ /١٣ (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار):
- ١٠٧ /١٤ (ما هذه الشجرة؟):
- ١١٢ /١٥ (نور على نور):
- ١١٤ المطلب الثاني: مثل نوره
- ١١٦ المطلب الثالث: سياق الآيات:
- ١١٦ عرض عام للسياق:
- ١١٧ نور الهداية في سورة النور:
- ١١٧ النور الابلتائي:
- ١٢١ تحقق (نور على نور) في النور الابلتائي:
- ١٢٣ النور التدبيري:

- اللهم اجعل لي نورا: ١٢٦.....
- المبحث الرابع: أفعال الإظهار والإخفاء ١٣١.....
- جلىّ وتجلّى..... ١٣٢.....
- الدلالة اللغوية: ١٣٢.....
- استخدام القرآن الكريم: ١٣٢.....
- لا يجليها لوقتها إلا هو: ١٣٥.....
- تجلى ربه للجبل: ١٣٨.....
- فلق ١٤١.....
- أولاً: في اللغة: ١٤١.....
- ثانياً: مع المفسرين: ١٤١.....
- ثالثاً: التحقيق في الدلالة: ١٤٤.....
- أبدى ١٤٨.....
- وتخفي في نفسك ما الله مبديه: ١٤٨.....
- ويدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون: ١٤٩.....
- شهد، برأ، أطلع، أظهر، هدى ١٥٢.....
- أخفى ١٥٦.....
- أكاد أخفيها: ١٥٦.....
- السر وأخفى: ١٥٨.....
- أخرج ١٦٠.....
- الدلالة اللغوية: ١٦٠.....
- مفاعيل (أخرج) المسندة إلى الله في القرآن الكريم: ١٦١.....
- شرح الدلالة وتطبيقها على الآيات: ١٦٣.....
- أقبر، أعاد في ١٦٦.....
- أقبر: (ثم أماته فأقبره) ١٦٦.....

أعاد في:..... ١٦٩

استخدام القرآن الكريم للفظ (الإعادة): ١٦٩

يعيدكم فيها: ١٧٠

يعيدكم فيه: ١٧١

مقدمة:

أدرس في هذا البحث: (الظلمات والنور في القرآن الكريم)، دراسة معجمية وموضوعية.

معجمياً: حققت فيه الدلالة الدقيقة للنور والظلمات في القرآن الكريم، ودلالة الضياء، والفرق بينه وبين النور. وخرجت كافة الآيات وفق هذه الدلالات.

وموضوعياً: بينت أصناف الظلمات، كما يبينها القرآن الكريم، وتفسير قوله (يخرجهم من الظلمات إلى النور)، وقوله (يخرجونهم من النور إلى الظلمات)، وبينت أن الظلمات حقيقية، وأن النور حقيقي، وأن المجاز في ذلك إنما هو وهم يحول بين الإنسان والوصول إلى الحقيقة. وبينت مظاهر النور في تلك الظلمات، وما النور الذي يهدي الله إليه؟ وما النور الذي يهدي الله به؟ وكيف يتم الله نوره؟ فبينت أن النور الذي جعله الله: نور الهداية، ونور الغاية. ولنور الهداية مظهران: نور تدبيري يدبر الله به الخلق، ونور ابتلائي، جعله الله اختياراً للإنسان إن شاء اختاره وإن شاء لم يختره.

ثم فسرت آية النور: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وبينت دلالة كل لفظ في الآية، وبينت مفهوم (مثل نوره)، وشرحت أن قوله (نور على نور) يبين طبقيّة النور، وبينت سريان هذا المثل في آيات سورة النور.

وفي المبحث الأخير، ذكرت الأفعال الدالة على الإظهار والإخفاء

المسندة إلى الله سبحانه وتعالى. وقد اختصرت القول فيها، ولم أفصله، مكتفياً بالتفصيل الوارد في هذا البحث، وفي أبحاث أخرى، ومنها: (أفعال الخلق في القرآن الكريم، وأفعال الإحياء والإماتة، والغيب والشهادة).

اللهم اهدنا بنورك لنورك.

اللهم أنت نور السماوات والأرض، فأخرجنا من الظلمات إلى النور بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، فأتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

جمادى الثانية - ١٤٣٤هـ / أبريل ٢٠١٣م

abdmmys81@hotmail.com

المبحث الأول: النور والضياء في القرآن الكريم (مدخل معجمي)

خلاصة الدلالات:

النور: إظهار الشيء الذي كان في ظلمة؛ فيُهدى به.

الضوء: شيء ينبعث من مصدر محسوس مضيء، فيحدث النور،
وتمكّن الرؤية. و(الضياء): هو المصدر المحسوس المضيء.

الإظهار، هو إخراج الشيء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة

الإخراج: الإظهار التام لشيء كان في الغيب واقترب من عالم
الشهادة.

جلىّ: أظهر الشيء بنوره، فأخرجه من عالم الغيب إلى عالم
الشهادة.

الفلق: شق الشيء المظلم وإخراج الشيء المفلوق منه.

الإبداء: إظهار الشيء الذي تخفيه النفوس.

الشهادة: إظهار الحق إظهاراً بيناً.

برأ: إظهار شيء مخلوق لم يكن ظاهراً. والبارئ: هو الذي
يظهر خلقه بعد أن كانوا مخفيين في عالم الغيب، فيخرجهم إلى
عالم الشهادة.

أطلع: إظهار الغيب للخلق.

إخفاء الشيء: إعادته من الشهادة إلى الغيب
أقبره: أعاد المخلوق الحي في الأرض، وجعلها قبراً له.
أعاده في الأرض: أخفاه فيها، وردّه من عالم الشهادة إلى عالم
الغيب.



المطلب الأول: النور والضياء لدى اللغويين:

ذهب بعض العلماء إلى أن النور والضياء بمعنى واحد، ونجد أيضا المفسرين في تفسيراتهم يفسرون أحدهما بمعنى الآخر.

وجمهور العلماء المتقدمين من المفسرين واللغويين على التفرقة بين النور والضياء، ثم اختلفوا في وجه التفرقة، وخلصتها كما يلي:

التفريق من حيث المصدر، فالضوء ما كان من ذات الشيء المضي، والنور ما كان مستفادا من غيره، كنور القمر مستفاد من ضوء الشمس.

التفريق من حيث الخصائص، فقالوا: الضياء للشيء الذي يكون فيه ضوء وحرارة، كالشمس (ولذلك وصفت بالسراج الوهاج، والوهج: الحر والضوء)، والنور للشيء الذي يكون فيه إنارة فقط دون حرارة.

التفريق من حيث الأثر، فقالوا: الضياء هو الإنارة الشديدة، وبعضهم قال: النور هو الأصل والضياء هو المنتشر عن النور، ومن ثم فالضياء أقوى. قال الراغب: (النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار)، وقال: (الضوء: ما انتشر من الأجسام النيرة). وعكس بعضهم ذلك، فقال أن النور أقوى من الضياء، بدليل آية النور.

وسأحقق في الدلالة بعد بيان استخدام لفظي (النور والضياء) في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: (الضياء) في القرآن الكريم:

بالنظر في استخدام القرآن الكريم، نجده استخدم الفعل:

أضاء/يضيء، والمصدر: ضياء، ولم يرد فيه لفظ (الضوء).

أضاء:

وأما فعل الإضاءة فجاء مسندا إلى شيئين: النار والبرق، قال تعالى: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ)، فالنار المشتعلة هي كالمصباح، فهي تضيء بذاتها. وقال: (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا)، فإضاءة البرق ومضة، والبرق شرارة كهربائية في السماء، تضيء إضاءة خاطفة. فالنار والبرق كلاهما ينتج عن اشتعالهما الضوء. وقوله: (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارًا)، فهو يفيد أن زيت الشجرة يضيء حين تمسه النار، وزيت الشجرة وقود يحتاج إلى إشعال ليضيء، فهو يختلف عن النار المشتعلة التي تضيء.



وفي ثلاثة مواضع جاء بلفظ (ضياء)، وفي كلها أسند الفعل

الواقع على الضياء إلى الله،

جعل الشمس ضياء:

وهي قوله: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)، فالله جعل الشمس ضياء، وقوله: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ)، فالله يأتي

بالضياء، والضياء هي الشمس التي جعلها الله ضياء.

وقوله: (جعل الشمس ضياء)، ولم يقل: مضيئة، بل استخدم المصدر، للدلالة على أنها أصبحت الضياء نفسه، فهي ليست كالنار أو الكهرباء التي تشتعل فتضيء، بل هي ضياء، وهذا يعني أن دلالة الضياء تجمع بين أمرين: الاشتعال والإضاءة. وهو مفهوم قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا)، فهو سراج يضيء، وهو وهاج: شديد الاشتعال.

يأتيكم بضياء:

وقوله (يأتيكم بضياء)، ولم يقل: بنهار؛ لأن الضياء هو معادلة الليل والنهار، فإذا جاء الضياء كان النهار، وإذا ذهب الضياء كان الليل، والنهار هو زمن إضاءة الشمس للأرض من طلوعها إلى غروبها. وهذا يدل على أن الضياء دائم الانبعاث من الشمس، فيأتي نهاراً ويحجب ليلاً.

يتبين لنا ما يلي:

(١) النار تضيء، والبرق يضيء، والشمس ضياء، وكل هذه أشياء تشتعل فتنتج الضوء، ومن ثم فهي مصادر للإضاءة، فالضوء ينبعث منها.

(٢) الأصل هو الظلام، ويزول الظلام بانبعاث الضوء، ويدل على ذلك قوله: (يأتيكم بضياء)، أي: يأتيكم بضياء يزيل الظلام، ولو لم

يأت الضياء لاستمر الظلام. وقوله (وأخرج ضحاها)، فالشيء الذي يُخْرَج هو التالي وليس السابق، والأول هو الوعاء الذي يحتويه.

(٣) حين ينبعث الضوء، فإن الأثر الذي يحدث يسمى: نورا، فالنور إذن هو أثر وجود الضوء، ويدل عليه قوله: (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ)، فبين أن انبعاث الضوء أحدث النور، حيث سُمي أثر الضوء (نورا). فلو ذهب النور لعاد الظلام. كما أن الضياء قد يحدث أثاراَ أخرى غير النور، كالحرارة، وقد جمع بينهما في قوله: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا)، فالسراج المضيء الذي يحدث النور، والوهاج: المشتعل الذي يحدث الحرارة. (والنور بهذا المعنى هو الاستخدام البديل للإضاءة، فتقول: هذه الغرفة مُضاءة، وأفضل منه القول: هذه الغرفة منيرة، أي: انبعث فيها الضوء فأحدث النورَ لبدلا من القول: فأحدث الإضاءة). ومن الآثار التي يحدثها ضياء الشمس أيضاً: تكوين الطعام في النباتات، والطاقة التي تتحول إلى وقود، ولذلك سُمي الله الشمس الضياء، فهي ضياء تحدث أثارا كثيرة من نور وحرارة ووقود وطعام... الخ.

(٤) بالنور تظهر الأشياء للعين، فتمكن الرؤية، حيث تنعكس الأشعة الضوئية من الأجسام فتتمكن العين من الرؤية، وهو ما تشير إليه الآيات، كقوله: (كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ). وبغياب النور يستمر الظلام، ومن ثم عدم القدرة على الرؤية، وإليه أشار: (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)، (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا).



تعريف الضوء والضياء:

وعليه فالضوء: (١) شيء ينبعث من مصدر محسوس مضيء، كالنار أو الشمس (فالضوء ينبعث من ضياء كما يسميها القرآن)، (٢) يؤدي وجوده إلى النور، وغيابه يعني استمرار الظلام. (٣) يتمكن الإنسان من الرؤية في وجود النور.

وبهذا يمكن تعريف الضوء بأنه: شيء ينبعث من مصدر محسوس مضيء، فيحدث النور، وتُمكن الرؤية.

و(الضياء)، هو المصدر المحسوس الذي ينبعث منه الضوء والحرارة، فالشمس ضياء، والنار ضياء، فالضياء مصدر يضيء. فهي مصادر تحرق الوقود، فتشتعل، فينتج عنها الضوء والحرارة أيضاً. وهو لا يحدث النور فقط، بل يحدثه ويحدث الحرارة.

فالضياء = سراج + وهاج، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا)، فالسراج هو المصدر المضيء فقط، والوهاج هو مصدر الحرارة فقط، قال الخليل: (الْوَهَجُ: حر النار والشمس من بعيد)، وقال صاحب الصحاح: (توهجت النار: توقدت).

ولذلك لم يسم الله نبيه بالضياء، بل سماه بالسراج المنير (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)، فهو سراج ينشأ عنه النور (سراج منير). وعليه فمصباح الإضاءة الذي ينتج الضوء فقط دون حرارة يسمى: سراج، أما الذي ينتج الضوء والحرارة فيسمى: ضياء.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم حين يجمع الشمس والقمر يسمى الشمس سراجا، والقمر نورا، فلم يقل (سراجا وهاجا)؛ لأن

الحديث عن الضوء فحسب، ومن ثم فرق بينهما، فالشمس سراج:
(مصدر ذاتي للضوء)، والقمر نور: (مصدر عاكس للضوء)، قال
تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، وقال: (وَجَعَلَ
فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)، وحين أفرد الشمس بالذكر قال: (وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَاجًا).



آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء:

والموضع الثالث في قوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)، فالحديث عن ثلاثة أشياء آتاهما الله: الفرقان وضياء وذكر للمتقين.

والمفسرون على أن الضياء هي التوراة، قال ابن الجوزي: (والمعنى أنهم استضاءوا بالتوراة حتى اهتدوا بها في دينهم)، وقال الثعلبي: (أنهم استضاءوا بها في ظلمات الجهل والغبوة). وقال ابن عاشور: (والضياء: النور. يستعمل مجازاً في الهدى والعلم، وهو استعمال كثير، وهو المراد هنا وقد قال تعالى: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور"). وأما الفرقان فقليل هو التوراة لأنها تفرق بين الحق والباطل، وقيل هو النصر على فرعون، وقيل البراهين والمعجزات التي أوتيتها موسى ففرقت بين الحق والباطل. (انظر الأقوال في زاد المسير).

ويشكل على هذه التفسيرات أنهم فسروا الضياء بالنور، مع أن القرآن الكريم كما سألين، حين يتحدث عن الكتب المنزلة يذكر "النور" لا "الضياء"، فالضياء غير النور. كما أن الضياء في عامة آيات القرآن الكريم يتعلق بأشياء محسوسة: النار والبرق والشمس، فالضياء مصدر محسوس يضيء، وعليه فالضياء ليس التوراة، وكتب الله هي نور وفيها نور، ولا نقول: هي ضياء.

أما تفسير الآية والله أعلم، فهو كما يلي:

(الفرقان)، الفرقان هو ما يفرق بين شيئين متباينين، والقرآن يطلقه على ما يفرق بين الحق والباطل، والفرقان الذي أوتيه موسى

ليس التوراة، بدليل قوله: (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)، فالكتاب غير الفرقان، وتفسير من فسرهما بالبراهين أو النصر هو أولى، فالبرهان هو نصر بالحجة أيضا، ولذلك سماها الله سلطانا مبينا: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ). وسياق الآيات يرجح ذلك، فالآية جاءت في سياق آيات تتحدث عن استهزاء الكافرين بالنبي، (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، فالله نصر موسى على من استهزأ به، وكذلك سيؤتي الله نبيه النصر على أعدائه، ولذلك سمي يوم بدر يوم الفرقان (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ).

وأما الذكر فهو الكتاب الذي أنزله على موسى، وهو التوراة، وقد جاء عقب الآية: (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)، أي: آتينا موسى الذكر، ونحن الذي أنزلنا على محمد صلى الله عليه وسلم هذا الذكر المبارك، فلماذا تنكرون؟

فما الضياء؟

سنعود قليلا لبدء الوحي إلى موسى،

قال تعالى: (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي).

وقال: (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ
مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ
أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ،

وقال: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ
الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ).

فتبين الآيات أن موسى بينما كان سائرا في سيناء، في ليلة
مظلمة باردة، رأى نارا، فظن أنها نار ركب أو رعاة أشعلوها
ليستضيئوا بها، فقد يجد عندها من يرشده في طريقه، كما يجد
تدفئة وإضاءة (آنَسْتُ نَارًا سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ). فلما أتاه لم تكن تلك النار التي ظنها، فهي نار
لم يوقدها بشر، بل نار جعلها الله في تلك البقعة المباركة، فناداه الله
وأوحى إليه.

وقد نقل القرطبي عن ابن عباس: (فلما توجه نحو النار، فإذا
النار في شجرة، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة
تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا
كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار)، ونقل
عن الماوردي: (كانت عند موسى نارا: وكانت عند الله تعالى نورا).
وقال البغوي: (رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، أطاقها بها

نار بيضاء تتقد كأضوا ما يكون، فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار).

فراها موسى نارا، وكانت عند الله ضياء، ولذلك قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ)، فهي ضياء آتاه الله موسى، فالضياء هو "نار الطور"، وهي النار التي بارك الله من فيها ومن حولها، واختار الله موسى رسولا، وكلمه فيها. قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً)، فالله يجعل ما شاء من خلقه ضياء، فقد جعل الشمس ضياء، وكذلك جعل نار الطور ضياء، وبارك من فيها ومن حولها، فسبحان الله رب العالمين.

ومن ثم فالضياء في القرآن الكريم لم يخرج عن دلالاته التي أشرت إليها.

ومما يستأنس به أن الآية وردت في سورة الأنبياء، وهي عقب سورة طه التي تحدث فيها عن نار الطور، كما أن سورة الأنبياء تحدث فيها عن نار إبراهيم: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)، فناره جعلها ضياء لموسى، ونار البشر التي حاربوا بها وليه جعلها بردا وسلاما، فمثلها مثل الهواء الذي يحيط بنا.



المطلب الثالث: النور في القرآن الكريم:

جاء لفظ: نور/ النور، في القرآن الكريم ٤٣ مرة، ولفظ (منير) ست مرات.

وبدراستها كلها وتحليلها، تبين أن دلالة "النور" هي: (إظهار الشيء الذي كان في ظلمة؛ فيُهدى به).

فهذا التعريف يشتمل على ثلاث خواص، هي: (إظهار الشيء)، وهذا يبين حالة النور، والثاني: (الذي كان في ظلمة)، وهذا يبين طبيعة الشيء المظهر، والثالث: (فيُهدى به)، وهذا يبين أثر النور. وسأوضح هذه الخواص في ما يلي^(١):

^(١) للقااضي عياض كلام لطيف حول النور، يقول في إكمال المعلم: حقيقة النور أنه الذي به تنكشف الأمور وتظهر المخبات وتنكشف الحجب والسواتر به، وهو معنى يقوم بالأجسام، وربما سميت الأجسام الملازمة [بالوصف] بهذه الأوصاف أنوارًا، إذ لا تخلو منها فهو كله خلق من خلق الله وفعل من أفعاله فهو منور الآفاق بهذه الأنوار، فيزيل عنها الظلام، ويكشف اللبس والعشا من الأبصار، فيسلكون به سبلهم ويهتدون به إلى شؤوهم، فيُهدى بها في ظلمات البر والبحر، وسمى القرآن بذلك؛ لهداية قلوب المؤمنين، وكشف الريب والشك، وإيضاح سبل الحق وطرق الهدى والرشد، وسمى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك؛ إذ به هداية جميع المؤمنين، وهو المبين لهم عن الله والموضح لهم شريعته ومخرجهم من ظلمات الكفر، والله - تعالى - فاعل ذلك كله، فهو النور وذو النور، قال الله تعالى: {اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} وليست ذاته بنور ولا هو صفة على هذا المعنى الذي ذكرناه خلافاً لمن قال ذلك من الْمُجَسِّمَةِ بل هو تعالى نور من حيث هو خالق النور، وجاعله أو مدبر خلقه بذلك،

الخاصة الأولى: إظهار الأشياء

فالنور إظهار.

النور هو إظهار للشيء، فإذا كنت في ظلام دامس، وحولك أشياء كثيرة - فهل تراها؟ لا تراها؛ لأنها غير ظاهرة، بالرغم من وجودها، فإذا جاء النور لمن أي مصدرًا، ظهرت الأشياء، وتمكنت من رؤيتها. فالشمس (الضياء) تبعث ضوءها إلى الأرض، فيحدث النور، فتظهر الأشياء بعد أن يلفها ظلام الليل. وكذلك القمر يُظهر الأشياء (مع اختلاف درجات الإظهار)، فهو نور.

وقد استخدم القرآن الكريم لفظ "الإظهار" مع النور، قال تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، فقال: (ليُظْهِرَهُ)، أي ليُظْهِر (دين الحق)، فالله هو من يُظْهِر، والدين هنا هو الشيء الذي يُظْهِر، فالدين (نور) باعتبار ما يُظْهِر من الحقائق، ونور الله يُظْهِر كلَّ نور، فهو الذي جعل الظلمات والنور، وهو الذي يُظْهِر الأنوار كلها.

كما أن الإظهار يتدرج من الضعف إلى القوة، فنور المصباح المنتشر يُظْهِر ما قرب منه إظهاراً أتم وأكمل مما بُعد منه، فأنت تقرأ الكتاب بجوار المصباح، وكلما ابتعدت عنه ضعفت إمكانية الرؤية؛

فيكون صفة فعل أو من حيث هو مبيّنٌ وهادٍ بإرادته وقدره بذلك وقدرته، فيكون صفة ذات، أو على لسان أنبيائه وجعل ذلك في قلوب أوليائه فيكون صفة فعل.

لتدرج الإظهار من الضعف إلى القوة. وكذلك الشمس فنورها في الظهر أقوى منه وقت الغروب، وسمي الظهر ظهرا؛ لأن نور الشمس أظهر ما يكون ذلك الوقت.

وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)، أي: ويأبى الله إلا أن يصبح الإظهار تاما مكتملا، وذلك أن النور حين ينتشر، يتدرج حتى يملأ الحيز الذي انتشر فيه، وكذلك نور الله (الدين) بدأ شيئا فشيئا، وظن الكفار حينئذ أن بإمكانهم إطفاءه كما يفعل الإنسان بنور الشمعة؛ فيمكنه إطفاءه بيسرا، ولكن هيهات، فيأبى الله إلا أن يتم نوره، فيصبح قويا، وينتشر انتشارا كبيرا، ويظهر الحقائق كلها. وقد أتمه الله، فقال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).

وقوله تعالى: (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ)، يبين أن الأصل هو الظلمة، فهي تلف الأشياء، ولا يتم الإبصار، ومن ثم فالنور واقع عليها، وحين يأتي النور فإنه يمكن أن يذهب، فإذا ذهب عاد الأصل وهو الظلمة، ومن ثم عدم الإبصار. وهذا ما يدل عليه قوله: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)، والحديث: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نورا من نوره».

يتبين من هذه الآيات أن النور: إظهار، يقع عليه فعل الإتمام وهذا يدل على تدرجه من الضعف إلى القوة حتى يصبح تاما، ويقع عليه فعل الإطفاء والذهاب؛ وهذا يعني أنه شيء يأتي ويذهب، فهو ليس الأصل، بل الظلمة هي الأصل.

النور إذن: يطلق على ما يُظهر الأشياء، فالمصباح نور، والنار نور، والقمر نور، والدين نور، والكتاب نور، وباعتبار إظهاره للأشياء يسمى: منيرا، فالقمر منير، والكتاب منير، والنبى سراج منير. فكلها تظهر الأشياء بعد أن كانت في ظلمة.

ذكرت أن الأصل هو الظلمة، فالأشياء محاطة بحجب من الظلمات. والنور هو إظهار الشيء الذي كان في ظلمة. فالإظهار يتفاوت، فقد يكشف حجابا أو حجابين أو أكثر، وقد يكشف الحجب كلها.

فمثلاً، الشمس تأتي بضيائها، فيكشف نورها كثيرا من الحجب، ولكنها لا تكشفها كلها، ولو كشفتها كلها لرات العين الحجرَ وما بداخله، ولرات النواةَ وما بداخلها، ورات الخلايا وما بداخلها، ولاخترق بعينه المسافات البعيدة، ولا يحده سور أو جدار. فالشمس تكشف كثيرا من حجب الظلمات، والعين البشرية مهينة لإبصار مدى محدد.

وكذلك القمر يأتي بنوره، فيكشف نورُه بعضَ تلك الحجب، وما يكشفه من حجب الظلمات أقل وأضعف مما يكشفه نور الشمس. فالله هدى القمر لنورٍ، وهدى الشمس لنورٍ، يختلف كل منهما عن الآخر، وكل ذلك من تنوير السماوات والأرض.



وقوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)، فالله
سمى الحق الذي أنزله، وهو دينه: نور الله، وبين أنه أرسل رسوله به،
ثم قال (ليُظْهِرَهُ)، فالمظْهَر هنا هو الدين، فالله يظهر نوره (دينه)،
بنوره، وهو نور الله الذي يظهر كل نور.



الخاصة الثانية: إظهار الشيء الذي كان في ظلمة.

فالشيء الذي يُظهِرَ كان موجوداً، إلا أن وجوده في ظلمة، فحين يأتي النور ينكشف، ويُدرَك. وبذلك فهو يختلف عن الإظهار الذي هو الإيجاد مثلاً، أو غيره من أنواع الإظهار.

ويعبر القرآن الكريم عن هذا الشيء أيضاً بال(فلق)، فالفلق هو شيء كان في شيء مظلم، فالله يفلقه، أي: يشق ذلك الشيء المظلم، فيخرج الشيء من ظلماته إلى النور، فالله رب الفلق، أي: رب الشيء الذي فلقه فأخرجه من ظلمة شيء آخر.

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ). فهو يفلق الحب والنوى، فيخرج الكائن الحي الذي داخلهما، من ظلمات الحب وظلمات التربة إلى النور، فيكون نباتاً بإذن الله. وهو فالق الإصباح الذي يشق الظلام، فيخرج منه الإصباح، فيخرج هذا الإصباح من رحم الظلمات، وهو الذي يخرج الإنسان من الظلمات الثلاث في بطن أمه إلى النور، ... فهو رب الفلق، والفلق يشمل كل هذا وغيره، فالله نور السماوات والأرض.

وقوله: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، فهم شيء واقع في ظلمات، والله يخرجهم من تلك الظلمات إلى نوره.

الخاصة الثالثة: (الاهتداء به)

فالنور يزيح الظلمات، ومن ثم يكون هداية لمن تم تنويره.

فلو كنت في طريق مظلم، فإنك لا تهتدي إلى أين تتجه، فتحتاج إلى هداية، فإذا جاء النور اهتديت به في طريقك، حين تبصر الأشياء.

وقد يقول قائل، لماذا لا أقول: (فَيُبْصِرُ بِهِ)، أو: (فَتُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ فِيهِ)... الخ. فأقول: لفظ الاهتداء يشمل الرؤية والابصار، ويشمل غيرهما، كما سأوضح في هذا المدخل.

فمثلاً: حين يأتي النور، ترى الأشياء على حقيقتها، ويمكنك أن تمشي به في الظلمة، ولولاه لما مشيت، ويمكنك أن تمارس كثيرا من الأفعال به، ولولا وجود النور لما اهتديت إلى شيء من ذلك. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)، فهو يمشي بذلك النور، فالنور هداية له.

والاهتداء هو اللفظ القرآني المستخدم مع النور، وسأوضح دلالته لاحقا.

وقوله: (الله نور السماوات والأرض)، أي: هو الذي نورهما، ونور من فيهن، فبذلك النور اهتدى كل شيء إلى ما خلق له. فالطير تهتدي إلى الطيران، وتصفّ أجنحتها حين تطير، والسحب تهتدي إلى التراكم وإنزال الماء، والدواب تهتدي فتمشي... الخ. فتنوير الله للسماوات والأرض ومن فيهن، أظهر الأشياء بعد أن كانت في ظلمة، فاهتدت لما خلقت له، ولولا هذا النور لما كانت حياة، أو حركة.

(وسأوضح هذا في شرح آية النور، وكلها مذكورة في الآيات التي عقبها).

ومن الاهتداء أن تهتدي العين إلى الرؤية، وتهتدي عين الإنسان إلى الإبصار...

وهذا يفسر آيات الهداية، كقوله: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)، فالخلق والتسوية تمت، ثم بالنور اهتدى كل مخلوق، وكل ذرة في موجود، وكل نواة في ذرة، وكل خلية في كائن، ... الخ، كل ذلك اهتدى لما خُلِقَ له بالنور (الله نور السماوات والأرض)، أي منورهما ومنور من فيهما، ومنور كل شيء، فاهتدى كل شيء إلى وظيفته التي خلق لها، بذلك النور.

كما يفسر آيات الهداية، كقوله: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ)، (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ)، ولذلك يقترن النور والهداية، فالهداية لا تتم إلا إذا كان ثمة نور. وسأبين هذا لاحقا.



مفهوم الإبصار، والفرق بينه وبين البصائر:

من آثار النور، كما قلت: إمكانية الإبصار. فيمكن إبصار الشيء الذي ظهر بالنور، فالشيء حين كان في ظلمة لا يُبصر، وبعد أن يجليه النور يُبصر.

فما معنى الإبصار؟

قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)، وقال: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وقال: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

فهو نور الله الذي أنزله، والذي أرسل به رسوله، وهو دين الحق الذي تكفل بإظهاره. فهو نور يظهر الأشياء بعد أن كانت في ظلمة، فالأشياء التي يظهرها هي الحقائق، ويسمى القرآن الكريم: الحق، ولذلك أرسل رسوله بالحق، وأنزل كتابه بالحق، أي مظهرًا للحق في كل شيء، كما قال: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)، فالتبيان هو كشف الحق الذي كان مخفيًا، وتجليته، وإظهاره، حتى تدركه أبصار الناس (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ).

ولا تدركه إلا الأبصار التي هداها الله لنوره (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)، أما الأبصار التي عليها غشاوة، وهي التي طبع الله عليها فلا تدرك الحق الذي يكشفه هذا النور (وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)،

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ)، (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ)،
وستشهد هذه الأبصار على أصحابها يوم القيامة (حَتَّى إِذَا مَا
جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ).

فتأمل، أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (الأبصار)، وهو
استخدام على حقيقته، كما بينت في بحث (أفعال الخلق في القرآن
الكريم). فالأبصار هي التي تبصر، فالله أنزل نوره فكشف الحق،
والأبصار تبصره أو تعمى عنه.

ومن الخطأ الشائع القول: (بصائر الناس)، ويقولون: (الناس
يدركون الحق ببصائرهم). فالقرآن الكريم سمي آلة الإدراك: أبصارا
لا بصائر، كما في الآيات السابقة، وأما البصائر فهي تدل على النور
نفسه، فالله أنزله كتابه نورا، وجعله بصائر، أي: تساعد الناس على
إبصار الحق، بعد أن يكشفه لهم، قال تعالى: (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا)، وقال: (هَذَا بَصَائِرُ مِنْ
رَبِّكُمْ)، وقال: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ)، وأمر رسوله بالقول: (قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)، أي: على نور يكشف
الحق ويظهره ويجليه. وقال عن كتاب موسى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)، وموسى قال
لفرعون: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
بَصَائِرَ). وقوله: (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)، قال الفراء في
تفسيرها: (المعنى: بل على الإنسان من نفسه بصيرة، أي رقباء

يشهدون عليه بعمله، وهي: الجوارح). فالبصيرة هي الشيء الذي يكشف ما خفي فيجليه، فالإنسان نفسه سيكشف ما خفي منه، فيجليه، ويكون ذلك عن طريق جوارحه التي تشهد عليه بما رأت وما سمعت وما فعلت. فهو رقيب على نفسه.



يتبين مما سبق أن القرآن الكريم يستخدم لفظ (الإبصار) لإدراك الأشياء على حقيقتها، والإبصار منه ما يتعلق بالرؤية، وهي التي يشترك فيها الإنسان مع غيره من الحيوانات، فوظيفة العين لديها هي الرؤية، وهذا أول مراتب الإبصار. ثم خص الله الإنسان بخلق متميز، فطره على الإبصار الذي به يدرك الحق الذي يُظهره نور الله، وهذه هي الفطرة، وقد تحدثت عنها سابقا.

وتأمل في آيات النور، التي بينت حقيقة النور، فقد بينت مرتبتي الإبصار: الرؤية الحيوانية (أي التي يشترك بها الإنسان مع الحيوانات)، والإبصار الإنساني (الذي يتميز به الإنسان عن غيره).

فالأول أشار إليه بقوله: (ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها)، فهي رؤية العين، وقوله: (يكاد سنا برقه يذهب بالابصار)، أي: برؤيتها. وإلى الثاني بقوله: (يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ)، أي: الأبصار التي ما عميت بل أبصرت الحق الذي كشفه نور الله.



المبحث الثاني: الظلمات والنور (مدخل موضوعي)

المطلب الأول: وجعل الظلمات والنور:

قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ). فما هذه الظلمات التي جعلها الله؟ وما النور الذي جعله الله؟

حملها المفسرون قديما على ظلمات الكفر ونور الإيمان، ود. زغلول النجار في تفسير الآيات الكونية، ذكر أن ذلك يشير إلى الظلمة الأولية للكون التي استمرت ثلاثين مليون سنة، التي خلقت قبل النور، ثم جاء النور، فهي أولية زمنية.

إلا أن أبا الحسن الحرالي المراكشي، له كلام وجيه، في تفسير الآية، قال: (مِنَ الظُّلُمَاتِ} جمع ظلمة، وهو ما يطمس الباديات حسا أو معنى، {إِلَى النُّورِ} وهو ما يُظهِر الباديات حسا أو معنى). ففسر الظلمة بأنها تطمس الباديات، أي الأشياء الظاهرة، وفسر النور بأنه الذي يظهر الأشياء، وهو تفسير موفق في دلالته العامة، كما سيتبين لنا في هذا البحث.

غير أنه لا وجه للتفريق بين الحس والمعنى، هنا. والأولى القول: إن الظلمة تخفي الموجودات، والنور يظهر الموجودات. فالموجودات في الظلمة توصف أنها في عالم الغيب، وفي النور توصف أنها في عالم الشهادة.

وبالعودة إلى القرآن الكريم فإننا نجد تفسير هذه الآية، ففي

سورة الزمر تحدث عن ثلاث ظلمات، قال تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ
اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)، وفي سورة النور
تحدث عن ثلاث ظلمات أيضا: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ
مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا
أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).

فالظلمات التي جعلها الله: ثلاث ظلمات، ذكرها في سورة
الأنعام مجملة، وذكر عددها في سورة الزمر، وذكر مثالا لها في سورة
النور. فما هذه الظلمات الثلاث إذن؟

الظلمة الأولى: ظلمة الخلق الأول

هي الظلمة المطلقة المعتمدة التي لا نور فيها، وهي الظلمة التي وردت في الحديث الصحيح: (عند أحمد والترمذي وغيرهما، وصححه الألباني وشاكر وغيرهما): «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نورا من نوره».

وتأمل الحديث لم يقل: في ظلمات، بل قال في ظلمة، فهي الظلمة الأولى، وهي الظلمة التي خلق الله فيها خلقه. ولا نعلم المدة التي استمرت فيها الظلمة الأولى، إلا أن هذه الظلمة كما يفيد الحديث لم يكن فيها نور. وهذه الظلمة لم تكن ثمة حياة فيها، بل كل شيء هامد ساكن.



الظلمة الثانية: ظلمة الدنيا

وهي الظلمة الثانية من الظلمات الثلاث، فالله بعد أن خلق خلقه ألقى عليهم نورا من نوره، فهو لم يلق عليهم كل نوره، وإنما نورا من نوره، فأزال بعض حجب الظلمة الأولى، ودخل الخلق في عصر الظلمة الثانية، وهي الحياة الدنيا، فهي ظلمة تملأ السماوات والأرض، والله نور السماوات والأرض، فأزال نوره كثيرا من حجب الظلمات، ولكن بقيت كثير منها.

مظاهر ظلمة الدنيا:

وقد تحدث القرآن الكريم كثيرا عن هذه الظلمة، فهي ظلمة وفيها ظلمات كثيرة، ففي السماء ظلمات، وفي الأرض ظلمات، وفي البحر ظلمات، وفي الدواب ظلمات، وفي الإنسان ظلمات. واقتضى هذا ألا يكون النور تاما في الدنيا، فهناك ظلمات كثيرة، بعضها ندركها ونحسها، كما قال تعالى: (أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا نَحْنُ يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ).

وكل مخلوق يخلقه الله، يخلقه في ظلمات، كما قال تعالى عن الإنسان: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)، ثم يلقي عليه من نوره فيظهره. وسأتحدث عن ظلمات الإنسان لاحقا.

جعل الله النور نوراً على نور:

وكذلك اقتضت سنته في الدنيا أن جعل النور (نورا على نور)، أي: طبقياً. فكل نور يزيح حجباً من الظلمات، فنور الشمس يزيح حجباً منها، ونور القمر يزيح حجباً مختلفة، وهكذا يتفاوت النور، بحسب حجب الظلمات التي يزيحها، ومدى هذه الإزاحة، ومدتها. فاقتضت سنة الله ألا يكون القمر سراجاً، ولو كان سراجاً لذهبت ظلمة الأرض، فأشرقت، ولما استقامت عليها الحياة (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَاهُ تَفْصِيلاً). وهذا لا يكون في الدنيا. أما الشمس فهي سراج، وهي ضياء، فنورها يزيل حجباً أكثر من الظلمات. ورغم ذلك فهناك (مادة مظلمة) كبيرة في السماء، كما يقول العلماء اليوم، فهي تسبح فيها.

وقد جعل لنا وسائل نهتدي بها في تلك الظلمات، كالنجوم (وهي المصابيح)، (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر).



كيف نور الله السماوات والأرض:

والله نور السماوات والأرض ومن فيهن، فهذا النور من تدبيره الذي تستوي فيه المخلوقات كلها. وآية النور تتحدث عن تنوير الله السماوات والأرض في هذه الظلمة. وبهذا النور، تستقيم الحياة

الدنيا، كما توضح ذلك آية النور، فحياة الأحياء، وتسبيح الكائنات، وحركتها، ونزول الأمطار، وتقلب الليل والنهار،... كل ذلك من نوره في السماوات والأرض، ولولا هذا النور لما كانت حياة في الدنيا. أسأشرح هذا في آية النور.

ونور الله يجلي الخلق، فيخرجه من الظلمة، ولا يعني هذا الخروج التام، وإنما هو درجات متفاوتة. وكل شيء يجليه الله لوقته، فالسماوات والأرض جلاها لوقتها، والدواب كأجناس جلاها لوقتها، وكأنواع كل منها جلاها لوقتها، وكذلك أفرادها، فأدم مثلا جلاه الله لوقته، وكل فرد من أفراد البشر يجليه الله لوقته، وهكذا الخلق كله، حتى الساعة: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَأُجَلِّيَهَا لَوْعَتِهَا إِنَّا هُوَ). وهذا يفسر قوله تعالى أيضا: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)، وقد شرحت ذلك في بحث (أفعال الخلق في القرآن الكريم: برأ).

والمخلوق الذي يجليه الله، لا يكون جلاؤه تاما، فالدنيا لا زالت ظلمة، واقتضت سنة الله ألا يجلي المخلوقات جلاء تاما، فالنور التام في مرحلة أخرى، كما سأحدث عنه.



ظلمات تلف النفس:

ومن هذه الظلمات أيضاً: الظلمات التي تلف حجبتها النفس الإنسانية، وهي ظلمات حقيقية، ولكننا لا ندرك كونها في الدنيا؛

لأننا رهن الظلمة، فالإنسان قابع في هذه الظلمات، منغمس فيها، وقد جعل الله الخروج من هذه الظلمات بنور خاص، ليس كنور القمر أو الشمس، بل بنور أنزله من لدنه، وهذا النور يساعد الإنسان على الخروج الجزئي من هذه الظلمات في الدنيا، فإن أفلح فسيعطيه الله نورا تاما في الظلمة الثالثة، ويخرجه بعد ذلك من كل ظلمة إلى النور، وإن شقي فإنه يدسي نفسه في الظلمات، وليس بخارج منها أبدا، كما قال تعالى: (كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا). قال سبحانه: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، أي دسها، قال القرطبي: (قال أهل اللغة: والأصل: دسها، من التدسيس، وهو إخفاء الشيء في الشيء)، فقد خاب من دسها، أي: من أخفى نفسه في الظلمات، ولم يخرجها منها، وقد أفلح من زكها، أي: زكى نفسه، فأظهرها بالنمو كما يزكو الزرع، حتى يهيئها للخروج من الظلمات إلى النور. قال تعالى: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ). وسأتحدث عنها لاحقا.

ولذلك فما يعتري الإنسان من مرض وجوع وعطش وضعف وحزن وضيق وخوف وقلق وتغير وموت، كل ذلك إنما هو نتيجة للظلمة التي هو فيها، والتي خلق فيها.

وتأمل قوله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ). فلماذا كانت الاستعاذة برب (الفلق)؟ أوضحت

سابقا دلالة الفلق، فالله يفلق الأشياء فيخرجها من الظلمات إلى النور، والاستعاذة برب الفلق جاء من ظلمات حقيقية، فشر الخلق، وشر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد... هذه كلها ظلمات، فأمرنا الله بأن نستعيد منها برب الفلق (أي الذي يخرج الأشياء من ظلماتها).



الظلمة الثالثة: ظلمة القيامة.

وهذه الظلمة تحدث القرآن الكريم عنها، وتحدث عن بعض سننها، فمن ذلك حديثه عن مصير المخلوقات التي جعلها الله في الدنيا مصابيح وأنوارا وضياء. فالنجوم ستطمس، والشمس ستكور، والقمر سيخسف (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)، (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)، (فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ).

ومن ثم فسرتها تختلف عن سنن الظلمة الثانية، ليس في الإضاءة فقط، بل في كل شيء، في الحياة، والحركة، وسنن الخلق والإعادة... فالناس سيجليهم الله بإعادة خلقهم كما بدأ أول خلق، فخلق النسل في الدنيا يختلف عن خلق الأصل، أما ذلك اليوم فأعادة خلق النسل سيكون مثل خلق الأصل (راجع بحث: أفعال الخلق في القرآن). وهكذا فلذلك اليوم سننه، ونوره الذي يجلي تلك الظلمة. ومن ذلك قوله: (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا).

وقيامة كل إنسان حين يموت فيدخل قبره (ونقل الطبري عن جماعة من السلف أنهم كانوا يقولون: قيامة كل نفس موتها)، فهو ينتقل إلى الظلمة الثالثة، وهي لها سننها، ولها نورها.

ومن النور في هذه الظلمة، ما ورد في قوله: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ)، فهم أحياء، يرزقون، ويستبشرون، وما جاء في الحديث أن الميت يرى ويسمع وينطق،

ويتنعم أو يتعذب، والأحاديث في ذلك كثيرة. فكل ذلك من النور الذي يكون في تلك الظلمة، والنور الذي في القبر تدبيري، يكون للمؤمن وغيره، فالكافر أيضا يرى ويسمع وينطق ويتعذب، فلولا نور الله الذي ينور به تلك الظلمة لما سمع أو رأى.

وفي قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)، فهي رؤية حقيقية للعمل، يرى الإنسان مؤمنا أو كافرا عمله، ولذلك قال تعالى: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، فالله يكشف الحجاب عن البصر، فيتمكن من رؤية عمله، خيرا أو شرا. فهذا من النور الذي يكون في هذه الظلمة.

وتستمر أحداث القيامة حتى حشر الناس وحسابهم، إلى تطاير الصحف، وأخذ كل منهم كتابه بيمينه أو بشماله. ويعرف كل منهم مصيره، فيتم الله لأهل اليمين أنوارهم، فيسعى بين أيديهم وبأيمانهم، ويقودهم في تلك الظلمة ليخرجهم منها، ويبقى أهل الشمال في ظلماتهم، فيساقون إلى جهنم وردا. وعندئذ تنتهي مرحلة الظلمة الثالثة.

ويتحقق أمل المؤمنين (إخراجهم من الظلمات إلى النور)، فهم يخرجون من الظلمة الأولى، ثم من الظلمة الثانية وما فيها من ظلمات، ثم من الظلمات الثالثة، إلى النور. وهذا ما أتحدث عنه في الفقرة القادمة.



وجعل النور:

تحدث سابقا عن الظلمات التي جعلها الله، وهي ثلاث ظلمات، تتدرج من الأشد حتى الأخرى، فالظلمة الأولى معتمة لا نور فيها، والظلمة الثانية فيها من نور الله التدبيري والابتلائي، والظلمة الثالثة فيها من نور الله التدبيري والهدائي، فهذه الظلمات التي جعلها الله. أما النور الذي جعله فهو النور الذي وعد المؤمنين بإخراجهم إليه (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

فالنور هذا سيكون في الجنة، بعد انتهاء مراحل الظلمات الثلاث، فمن اجتازها، بلغ هذا النور، ومن لم يجتازها لم يبلغه، فانتكس في ظلمات جهنم.

واقترضت سنة الله أن يجعل في الظلمات الثلاث نورا من نوره، حتى تستقيم الحياة الدنيا، وتحيا الكائنات فيها، ويهتدي الناس بنور ربهم إلى النور الموعود.

وفي المدخل التالي (يهدي الله لنوره) سأوضح ذلك توضيحا تاما.



مَثَلُ الظُّلْمَاتِ وَالنُّورِ فِي الدُّنْيَا:

فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ:

وأود الإشارة إلى قوله تعالى: (يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ). فسرّها المفسرون بظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. وهي كما فسروها لارتباطها بالحديث عن خلق الإنسان (النسل) في بطن أمه.

ولكن الآية تشير أيضا إلى أن الظلمات الثلاث التي تحدثت عنها آنفا، فجعل الله في كل إنسان عبرة وعظة وآية، فهو يخلق خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، حتى يجتاز هذه الظلمات الثلاث، ويخرج إلى الدنيا، التي تمثل له نورا تاما قياسا إلى الظلمات التي كان فيها. وكذلك يمر بثلاث ظلمات، فإن اجتازها أفلح ونال النور التام، وإن دسّ نفسه فخاب ولم يخرج من الظلمات، فماله من نور.

ظلمات بعضها فوق بعض:

وهذا هو المثل الذي ضرب في سورة النور (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ). فهي ثلاث ظلمات يراها الناس في البحر اللجي، الظلمة الأولى أشد من الثانية، والثانية أشد من الثالثة. وكلها ظلمات بعضها فوق بعض، والفقوية هنا حسية طبقية، أي: طبقة مشاهدة فوق طبقة، وأيضا الفوقية درجات، فدرجة ظلمتها أشد من أخرى.



فإن الله جعل حياة الإنسان نفسه نموذجا مصغرا للظلمات، وأيضا في الحياة يشاهد هذا النموذج. والظلمة الأولى هي أعمم الظلمات التي لا نور فيها، والظلمة الثانية أقل منها ظلمةً، وأشد نورا، وأما الظلمة الثالثة فلا شك أنها أقل ظلمة من سابقتها، وأشد نورا منهما، وإن كنا لا ندري عنها الكثير.

والتدرج من ظلمة شديدة إلى ظلمة أهون منها، هو تهيئة للإنسان حتى يصل إلى النور التام الذي لا ظلمة فيه، أو ينتكس فيعود إلى الظلمة الأولى، قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)، فمن آمن لم يرد إلى أسفل سافلين، وأما من كفر فيرد إلى أسفل سافلين، حيث الظلمة التامة.



المطلب الثاني: يهدي الله لنوره/بنوره:

يهدي الله لنوره من يشاء:

قال تعالى في آية النور: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ). فما النور

الذي يهدي له؟

مع المفسرين:

قال ابن الجوزي في زاد المسير: (فيه أربعة أقوال: أحدها: لنور القرآن. والثاني: لنور الإيمان. والثالث: لنور محمد صلى الله عليه وسلم. والرابع: لدينه الإسلام)،

وقال الألويسي: (أي يهدي سبحانه هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن، وإظهاره في مقام الإضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئة من إضافته إلى ضميره عز وجل، "مَنْ يَشَاءُ" هدايته من عباده بأن يوفقهم سبحانه لفهم وجوه دلالة الأدلة العقلية والسمعية التي نور بها السماوات والأرض على وجه ينتفعون به، أو بأن يوفقهم لفهم ما في القرآن من دلائل حقيقته وكونه من عنده عز وجل من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغير ذلك من موجبات الإيمان).

التحقيق في مفهوم الآية:

جاء في القرآن الكريم فعل الهداية متعديا للنور باللام، في هذا

الموضع فقط (يهدي الله لنوره). وجاء متعديا بالباء في موضعين: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)، (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ). فثمة فرق بين ما يهدي به، وبين ما يهدي له.

اللام في الآية تفيد الغاية، كما تفيدھا (إلى)، كما في قوله: (كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)، أي: إلى أجل مسمى، فقوله: يهدي الله لنوره، أي: يهدي من يشاء إلى نوره. فالنور هنا هو المنتهى الذي تكون الهداية إليه. وهو النور الوارد في قوله: (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

وأما الباء في قوله: (يهدي به/نهدي به)، فتفيد أن هذا النور وسيلة الاهتداء، فهم يهتدون بهذا النور، فالله جعله نورا هاديا لهم.

ومثال ذلك، لو أن إنسانا يسير في طريق مظلم، فإنه بحاجة إلى نور يهتدي به في طريقه، (فهو نور الهداية). ثم إن منتهى سيره إلى آخر الطريق المظلم، وهنالكَ نور في آخر الطريق، فهو يريد الخروج من الطريق المظلم إلى النور (نور الغاية).

وهذا مثل النور، فالإنسان في الدنيا في ظلمات، والله يريد أن يخرجهُ إلى النور (وهو النور الموعودون به في الجنة، كما أوضحتهُ سابقا)، وهذا النور هو النور الذي يهدي الله عباده المؤمنين إليه، (يهدي الله لنوره من يشاء).

ولكن الإنسان لا يستطيع وهو في الظلمات أن يصل إلى النور، فجعل الله له نورا يهديه به، فهذا النور هو ما أنزله سبحانه وتعالى،

وهو نور الله الذي يهتدي به الناس.

فالنور الوارد في الآيات له مظهران، نور الهداية، ونور الغاية.

الأول: نور الهداية

وهو الذي يهتدي به الناس وهم في الظلمات، حتى يمكنهم تجاوز هذه الظلمات. فالله نور السماوات والأرض بنوره، وأنزل نوره إلى الناس، فكلاهما من نور الله، فلولا نور السماوات والأرض لما اهتدى الناس في ظلماتهما، ولما استطاعوا العيش على الأرض، ولما كانت الكائنات قادرة على الحياة. وكذلك أنزل نوره الذي يهدي به الناس، فيساعدهم على الاهتداء به وهم في الظلمات التي خلقوا فيها.

فنور الهداية له مظهران: نور تدبيري، ونور ابتلائي

أما **النور التدبيري**، فهو نور تهتدي به المخلوقات كلها، وهذا النور جعله الله في الظلمة الثانية، وهو الذي تحدثت عنه آيات النور. كما جعله الله في الظلمة الثالثة، فبه يرى الدين في قبورهم مقاعدهم في الجنة أو النار، وبه تشرق الأرض يوم الحشر، وبه يعيد الله خلق الناس في المحشر.

وأما **النور الابتلائي**، فهو نور اختياري، أنزله الله في الدنيا، ودعا الناس إلى اختياره، وهو نور يهديهم في الظلمات التي هم فيها، وهذا النور في الظلمة الثانية، فمن أخذ منه نصيبه، فإن الله يتم له نوره في الظلمة الثالثة، حتى يصل إلى النور (الذي هو الغاية).

فالنور الابتلائي الذي في الدنيا هو الوارد في قوله: (وَأَنْزَلْنَا

إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)، (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)...
وغيرها من الآيات التي تصف ما أنزله الله من نور.

وهكذا فنور الهداية هو علامات جعلها الله في الدنيا، وأمر الناس
باتباعها (وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ)، حتى يتحقق لهم الخروج من
الظلمات إلى النور.



وتتمة هذا النور، هو الوارد في قوله: (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ)، وقوله: (وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ)، وفي
قوله: (رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورَنَا).

هذا النور هو نور هداية، ولكنه غير نور الهداية في الظلمة
الثانية، فهو نور الهداية في الظلمة الثالثة. فهو تتمة الهداية.

فالظلمة الثانية (الدنيا)، جعل الله فيها نور الهداية، المتمثل في
نور السماوات والأرض، وفي نور الوحي الذي أنزله، وأتمه. فمن اهتدى
بهذا النور كله، فقد تأهل للحصول على نور الهداية في الظلمة
الثالثة.

ونور الهداية في الظلمة الثالثة، هو المذكور في هذه الآيات،
فالناس في ذلك اليوم في ظلمة، ويحتاجون إلى نور هداية، ولكن لا
يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ، وأما غيرهم ممن ضل في الظلمة الثانية فلا
يمكنه الحصول عليه أبدا. فالمؤمنون يتم الله لهم نورهم، فيهدون به
في ذلك اليوم، حتى يصلوا إلى النور الذي وعدهم ربهم.

ومما يدل على ذلك قوله: {نورا تمشون به}، أي فهو وسيلة للاهتداء، وهذا النور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، فيهديهم طريقهم حتى يصلوا إلى النور.

وقول المؤمنين: (ربنا أتمم لنا نورنا)، يبين أنه جزء مكمل للنور الذي كان في الدنيا، فهم يدعون ربهم أن يتمه لهم. فالإتمام لا يكون إلا لشيء قد ابتدئ به. ولذلك حين يطلب المنافقون أن يأخذوا قبساً من نورهم، يقال لهم: (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا)، أي: ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا الجزء الأول من النور، فهنا تمامه فقط، فمن لم يكن معه ذلك الجزء فكيف يحصل على تتمته؟!؟



وتأمل أن القرآن الكريم، يسمى كليهما (النور التدبير والابتلائي): نورا، وكلاهما: يُهتدى به، ومن ثم فهو نور واحد له مظاهر شتى.

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، فهي هداية تدبيرية لجميع الخلق، يهتدون بها في الظلمات، وقال تعالى: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)، فهو هداية ابتلائية لمن يختار الهداية. إلى غير ذلك من الآيات.

ولذلك وصف الله الكتاب بالمنير، والنبي بالمنير؛ لأنه ينير الظلمات، فيكشف الأشياء المخفية فيها، فيهتدي الناس بذلك النور، ويبصرون الأشياء بعد خفائها.

الثاني: نور الغاية

وهو النور الذي يُراد للناس أن يصلوا إليه، بعد أن يخرجوا من الظلمات كلها، فيحيون في نور دائم. وهو الوارد في قوله: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ). وقوله: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، وقوله: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)... وغيرها.

فقد جعل الله ثلاث مراحل من الظلمات، ثم جعل لهم نورا ينتظرهم، إذا أفلحوا في اجتيازها، وهم لا يفلحون إلا بنوره كاملا، وهو النور الذي جعله لهدايتهم أثناء سيرهم في الظلمات، فمن اهتدى بنور الشمس مثلا، ولم يهتد بنور القرآن، فقد أخفق في طريقه، وتعدر عليه أن يخرج من الظلمات، بل سيكون ضالا فيها ضالا خالدا، كما لو كان في صحراء فهو يتيه فيها، ولا يهتدي إلى الخروج منها؛ لأنه لم يتبع العلامات التي كانت فيها وترشده إلى الخروج.

وهذا النور هو إظهار تام وحقيقي للأشياء، لكل شيء، إظهار لا ظلمة فيه، قال تعالى: (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ)، قال الجمهور: (عرفهم منازلهم فيها فلا يستدلون عليها ولا يخطئونها)، ذلك أن الله يخرجهم إلى النور، وهو نور الغاية، فكل شيء فيه ظاهر تمام الظهور، بين غاية البيان، واضح أتم الوضوح، ولذلك فهم يعرفون منازلهم مباشرة، وكأنهم مبرمجون على معرفتها.

وسأتحدث عن (نور الغاية) في الفقرة التالية (يخرجكم من الظلمات إلى النور).



وتأمل قوله: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فقد اشتملت الآية على النورين، الأول: نور الهداية، وهو النور الذي جاء في الدنيا (يهدي به الله من اتبع رضوانه). والثاني: نور الغاية، وهو النور الموعود به المؤمنون، والذي سيخرجهم الله إليه: (يخرجهم من الظلمات إلى النور). أي: جاءكم نور الهداية الذي يهديكم به، ليخرجكم إلى نور الغاية.

كما تأمل قوله: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)، فالكتاب أنزله الله مرشداً وهادياً، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ).

وقال: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، أي جعلناه نوراً يهدي به الناس إلى صراط مستقيم، فإن لم يهتدوا فسيكونون في ضلالة.

والناس في الدنيا يضلون الطريق، لو لم يأتهم نور الله، فيرشدهم، وقد وعدهم سبحانه بذلك: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا

فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، فبعد هبوطهم من الجنة بيّن لهم أنهم واقعون في ضلالة الظلمات، فيظلون متخبطين فيها لا محالة، والمنجاة منها إنما يكون بالهدى الذي سيأتي منه، وهو النور، فمن اتبعه أمكنه الخروج من الظلمات إلى النور، ومن لم يتبعه فسيظل قابعا فيها غير خارج منها.

قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)، وقال: (قُلْ أَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ). فثمة هداية حقيقة وضلالة حقيقية، وليست مجرد دلالة مجازية. فهي مرتبطة بالظلمات الحقيقية التي تحدثت عنها، ولذلك ترتبط الهداية بالنور، كقوله: (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)، (وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ)، وقوله: (جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ)، وقوله: (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ)، فالنور يكشف للناس الأشياء وحقائقها، بعد أن كانت مخفية في الظلمات، فيهدون بذلك النور.



الخلاصة:

وسأختم بخلاصة:

- (١) خلق الله الخلق في ظلمة تامة، وهي الظلمة الأولى. وقضى سبحانه أن ينقل الخلق جميعا إلى الظلمة

الثانية بنوره، فنوره من تدبيره.

(٢) وفي الظلمة الثانية جعل الله للناس نورا، بعضه من تدبيره، وبعضه من ابتلائه، ولو جعله كله من تدبيره لما تحقق الاختبار، ولو جعله كله من ابتلائه لما تحققت الحياة. ومن ثم على الناس أن يجتازوا الظلمة الثانية، فهم في ضلالة فيها، ولا يتأهلون لاجتيازها إلا إذا اهتدوا بالنور المنزل.

(٣) وفي الظلمة الثالثة، جعل الله النور ناتجا عن النور الابتلائي، فمن اهتدى بذلك النور في الظلمة الثانية، فقد تأهل للحصول على النور في الظلمة الثالثة، حتى يكمل السير. وهو النور الذي وعد الله المؤمنين به في تلك الظلمة، وسيسعى بين أيديهم وبأيامهم.

(٤) وعندئذ يخرج الله المؤمنين من الظلمات الثلاث إلى النور، وهو النور الذي يسعون إليه، وهو النور الذي سيؤهلهم لرؤية ربهم، حين يكونون نورانيين.

فאלهم اهدنا بنورك لنورك.



المطلب الثالث: يخرجكم من الظلمات إلى النور:

قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

(مع المفسرين):

فأما قوله (يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، فجمهور المفسرون على أن المراد: (يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان)، انظر الطبري وغيره. وقال ابن عاشور: (المراد بالنور نور البرهان والحق، وبالظلمات ظلمات الشبهات والشك؛ فالله يزيد الذين اهتدوا هدى).

وأما قوله: (يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)، ففسروها كذلك، ولكن أشكل عليهم قوله: من النور. قال البغوي: (فإن قيل: قال: يخرجونهم من النور وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قيل: هم اليهود كانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث لما يجدون في كتبهم من نعته، فلما بعث كفروا به، وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار، قالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه إخراج كما يقول الرجل لأبيه: أخرجتني من مالك ولم يكن فيه، كما قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام: "إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله"، ولم يكن قط في ملتهم).

وقال ابن عطية: (ومن كفر بعد وجود الداعي النبي المرسل فشیطانه ومغويه كأنه أخرجه من الإيمان، إذ هو معد وأهل للدخول فيه. وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر ما: أخرجتني يا

فلان من هذا الأمر وإن كنت لم تدخل فيه البتة).

وقال الزمخشري: (يخرجونهم من نور البيئات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: (فإن قيل: متى كان المؤمنون في ظلمة؟ ومتى كان الكفار في نور؟ فعنه ثلاثة أجوبة: أحدها: أن عصمة الله للمؤمنين عن مواقة الضلال، إخراج لهم من ظلام الكفر، وتزيين قراء الكفار لهم الباطل الذي يحميهم به عن الهدى، إخراج لهم من نور الهدى، و«الإخراج» مستعار هاهنا. وقد يقال للممتنع من الشيء: خرج منه، وإن لم يكن دخل فيه. قال تعالى: "إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله"، وقال: "ومنكم من يرد إلى أرذل العمر". والثاني: أن إيمان أهل الكتاب بالنبي قبل أن يظهر نور لهم، وكفرهم به بعد أن ظهر، خروج إلى الظلمات. والثالث: أنه لما ظهرت معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان المخالف له خارجا من نور قد علمه، والموافق له خارجا من ظلمات الجهل إلى نور العلم).

التعليق:

كل هذه الأقوال تأويل للظلمات وللنور، كما رأيت بالمعنى المجازي، مع أن القرآن الكريم لا يتحدث عن الظلمات إلا بمعنى الظلمات الحقيقية لا المجازية.

ثم إن القرآن الكريم يتحدث عن (إخراج) من الظلمات إلى النور، والإخراج يعني أن ثمة شيئا يقع عليه فعل الإخراج، فيظهر بعد خفاء.

ثم إن تفسيره بالكفر والإيمان، يقتضي أنهم كانوا في الكفر فأخرجوا منه، وأن الكافرين كانوا في الإيمان فأخرجوا منه، وقد بدت هذه الإشكالية للمفسرين، إلا أن التأويل المجازي حال دونهم ودون الخروج من الإشكالية، فجاءت تأويلاتهم غير مقنعة، حتى لبعضهم بعضاً.

التحقيق في الآية:

ذكرت آنفاً أن ثمة ثلاث ظلمات، جعلها الله، الأولى: ظلمة الخلق، والثانية: ظلمة الدنيا، والثالثة: ظلمة القيامة، وهي تتدرج من الأشد إلى الأخف، وتدرجها إنما كان لأن الله جعل النور، فالظلمة الأولى لم يكن فيها نور، والنور الذي جعله الله في الدنيا هو ما تحدث عنه في سورة النور، والنور الذي جعله في الظلمة الثالثة، أشرت إليه.

ففي الدنيا، اقتضت سنة الله إخراج المخلوقات كلها من الظلمات إلى النور، وهذا قوله: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وكما قال عليه السلام: «أنت نور السموات والأرض ومن فيهن»، والحديث السابق: «إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم نورا من نوره». فالنور الذي ألقى الله على خلقه أظهرهم جميعاً، بمشيئته وقدره. وتحدثت عن هذا آنفاً.

وفي الآخرة بعد انتهاء الظلمة الثالثة سيتم إخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور.

ولإيضاح هذا أقول:

(١)

(١): **ظلمات النفس في الدنيا:**

اقتضت سنة الله أن تكون في الدنيا ظلمات من نوع (لا ندرك حقيقته)، إلا أنها ظلمات حقيقية، وهذه الظلمات خاصة بالإنسان، ومن ثم فإدراكه ووعيه محدود بها. فهي ظلمات كل الناس واقعون فيها. لو هذه غير الظلمات التي خلق فيها الناس، والتي أشرت إليها سابقاً، فالناس كغيرهم من الكائنات أخرجوا منها بنور السماوات والأرض].



(٢)

(٢): **النور المنزل لإذهاب تلك الظلمة:**

وقد تكفل الله بإنزال نوره، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا). فهذا النور خاص لزوال تلك الظلمة الخاصة، فهو يخرج الناس من الظلمات إلى النور (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ)، ولولا رحمة الله لما أنزل هذا النور، فهو أنزله رحمة ورافة بعباده (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

وقد أرسل رسوله ليحقق إظهار هذا النور: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ). ومن ثم فرسوله يخرج الناس من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب، ولذلك وصف الكتاب بالمنير، ووصف الرسول بالسراج المنير (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا).

وهذه مهمة الرسل إخراج الناس من الظلمات إلى النور بآيات الله التي ينزلها عليهم (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)، (وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ). فهو يخبرنا أن تلك الكتب فيها هدى ونور، أما القرآن الكريم فإنه يخبرنا أنه جعله نورا (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)، وأنه في ذاته نور أنزله من لدنه: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)، (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ).

فالله سبحانه أنزل نوره في الدنيا ، وتكفل بإظهاره، ودعا الناس إلى الخروج من الظلمات التي هم فيها، والدخول في نوره. وقد أظهر نوره كمال الإظهار، وأتمه كل الإتمام.



(٣)

(٣): النور المنزل نور ابتلائي اختياري:

فهذا النور المنزل ابتلائي، يبتلي الله به الناس، وهو اختياري؛ إن شاء الإنسان اختاره وإن شاء لم يفعل. فالإنسان يختاره أو لا، ويختار البقاء في الظلمة أو الخروج منها. فالنور الأول من تدبير الله، وهذا النور من ابتلاء الله.

قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)، (وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَيُكْمَرُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ثم إن سنته اقتضت ألا يدخل الجنة إلا من تم له نوره. فدعا الناس إلى اتباع ذلك النور (فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا)، فمن اتبع ذلك النور، فقد اهتدى ومن زاغ عنه فقد ضل. (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وبذلك فالمؤمن الذي اتبع النور، هو على نور من ربه (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ). وهو من يخرج به الله من الظلمات إلى النور. (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).



(٤)

(٤): إتمام النور في الظلمة الثالثة:

كما اقتضت سنة الله ألا يتم النور (في القيامة، وهي الظلمة الثالثة)، إلا لمن اهتدى بالنور المنزل في الدنيا (وهي الظلمة الثانية)، وهذا وعد الله المؤمنين: (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ولذلك فالمؤمنون يدعون ربهم أن يتم نورهم (يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورًا وَاغْفِرْ لَنَا).

وفي ذلك اليوم سيكون الخزي لمن لم يجعل الله له نورا، فيكون في ظلمة (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ)، أما المؤمنون فيتم الله لهم نورهم، وغيرهم في ظلمات (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ).

وسياخذ النور أصحابه فيسوقهم إلى الجنة (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ)، وكل مؤمن معه من النور بحسب ما اكتسب منه في الدنيا، وكلهم يتم الله لهم نورهم.



(٥)

(٥) الإخراج إلى النور حقيقة:

فقوله (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، هذا هو نور الغاية، والإخراج إخراج حقيقي من ظلمات حقيقية إلى نور حقيقي، ونحن الآن في ظلمات الدنيا لا يمكننا إدراك هذا النور، وما زال وعينا وإدراكنا محدودا بظلمات كثيرة، فאלلهم أتمم لنا نورنا واغفر لنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور.

وقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)، هو إخراج حقيقي من نور حقيقي إلى ظلمات حقيقية، وسيكون ذلك يوم القيامة. فهم لا يزالون بهم حتى يخرجوهم من النور (النور الذي كان في الدنيا للمخلوقات كلها، والنور الذي أنزله الله وكان بإمكانهم أن يختاروه) إلى الظلمات (ظلمات جهنم لا نور فيها أبدا).

وقد جعل الله في كل إنسان تجسيد عملي لهذا الإخراج، فكل إنسان أخرجته الله من ثلاث ظلمات خلق فيها، إلى نور الحياة المؤقتة في الدنيا. كما جعل الله أمام ناظري الناس كل يوم تمثيلاً لهذا الإخراج، فإنه فائق الإصباح، فيخرجه من الظلمات إلى النور، وهو فائق الحب والنوى...

وهكذا يخرج الله الناس من الظلمات الثلاث (الظلمة الأولى، وظلمة الدنيا، وظلمة القيامة)، إلى النور الذي جعله لهم، وحينئذ يكونون مخلوقات نورانية، لا ظلمة فيها، والله أعلم بطبيعتها. ويكون

أهل جهنم مخلوقات ظلمائية لا نور فيها.

قال تعالى: (عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ)، قال قتادة: (مطبقة، لا ضوء فيها، ولا فرج، ولا خروج منها). وفي الحديث: (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة)، [رواه الترمذي]، وزاد الطبراني (فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها، ولا يطفأ لهبها). ولعل هذه المراحل الثلاث تشير إلى الظلمات الثلاث، ففي الظلمة الأولى أوقد عليه حتى احمرت، وفي الظلمة الثانية أوقد عليها حتى ابيضت، وفي الظلمة الثالثة أوقد عليها حتى اسودت فأصبحت سوداء مظلمة، مهياة لاستقبال أهلها، والعياذ بالله.



(٦)

(٦): طبيعة النور التام في الجنة:

ذكرتُ أن الإنسان في الدنيا مكبل بحجب من الظلمات، فهذه الظلمات تعيق كمال حياته، ولذلك يمرض، ويشيخ، ويضعف، ويموت، كما تعيق كمال حركته، كما تعيق كمال رؤيته وسمعه، فرؤيته محدودة المدى، وكذلك سمعه... الخ، فكل هذه ظلمات الدنيا. وكذلك نفسه في ظلمات، ولذلك يعتريه الحزن والقلق والخوف والغفلة والوهم وسوء الظن، وتفكيره فيه قصور، وتقديره للأشياء فيه نقص... الخ، فكل هذه ظلمات جعلها الله في الدنيا.

والله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهذا نور الغاية، كما بينت آنفا. فيخرجهم من كل تلك الظلمات إلى النور.

يخرجهم إلى النور، فالنور حياة خالدة، لا سقم فيها ولا هرم، ولا نصب ولا نوم، ولا ضعف ولا موت. قال تعالى: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)، وقال: (وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ)، وقال: (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)، وقال: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَّا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ). وفي صحيح مسلم مرفوعا: (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلي ثيابه، ولا يفضى شبابه)، وقال: (النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة).

وحياتهم حياة النعيم، لا شقاء فيها، فلا جوع ولا ظمأ، ولا عري

ولا ضحو، قال تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى). وقال تعالى: (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى)، والدليل فيها أنه لم تبد لهما سواتهما إلا بعد عصيانهما، وبذلك قضى الله أن يهبطا من الجنة، فبدت السوءات، وظهرت العورات، وقد اقتضت سنة الله أن تكون العورات للإنسان في الدنيا، ولذلك أنزل ريشا ولباسا، ليكون سترا له، أما في الجنة فلا عورات فيها، ولا سوءات، قال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا).

ومعشتهم في الجنة، معيشة كاملة، أكل هنيء، وشرب مريء، ولذة لا تنقطع، ورزق كريم، وظل دائم. قال تعالى: (لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)، وقال: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا)، وقال: (أَكَلَهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا)، وقال: (وَوُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا).

والنور طهر تام، لا أذى فيه، أجسادهم مطهرة، قال تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)، قال ابن القيم: (والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قدر وكل أذى يكون من نساء الدنيا). وفي مسلم أيضا: (يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك). قال ابن القيم: (جعل لهم سبحانه أسبابا تُصَرِّفُ الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم، وكذلك جعل في

أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه
رشحا وجشاء، وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار يخلق لها من
الحرارة ما ينضجها).

والنور جمال تام، ونور حقيقي، يكون للمؤمنين والمؤمنات في
الجنة، ففي مسند أحمد وغيره، وصححه الألباني: «لو أن ما يُقَلُّ^١
ظُفْرُ مما في الجنة بدا لتزخرف له ما بين خوافق السموات والأرض،
ولو أن رجلا من أهل الجنة اطلع، فبدا أساوره لطمس ضوءه ضوء
الشمس، كما يطمس ضوء الشمس ضوء النجوم»، فهو دلالة على
النور الذي أخرج إليه المؤمن، فنور الشمس في الدنيا لا شيء بجوار
نوره، ولكنه نور لا حرارة فيه ولا أذى. وفي الحديث الصحيح: (ولو
اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحا،
ولأضاءت ما بينهما).

يخرجهم الله من ظلمات الحسد والحقد والخوف والحزن، إلى
الطمأنينة، والرضا، والأمان. قال تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ)،
وقال: (يَا عِبَادِ لَأَخَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَأَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)، (ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ آمِنِينَ) (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ
مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَأَيَّمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ). قال
ابن كثير: ("بسلام" أي: سالمين من الآفات، مسلما عليكم، "آمينين"
من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء).

النور ذكر دائم لله تعالى، قال تعالى في آيات النور: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ

صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)، فبنوره تسبّح الكائنات، وهذا النور المختص بإلهام التسبيح تام لدى الكائنات (غير الإنسان)، فكل المخلوقات تسبّح ربها. والإنسان حين يتم نوره فسيُلهَم التسبيح أيضا، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم: (يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس).

النور إطلاق إمكانات الإنسان، فتكون أكمل ما تكون، فالنور الذي تحيا به الكائنات وتكون حركتها، في الدنيا، سيكون للإنسان إذا دخل الجنة أكمله وأتمه، وهذا من كمال النور. هناك أدلة كثيرة تدل على ذلك، منها:

قوله عليه الصلاة والسلام: (لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين على كل زوجة سبعون حلة يرى مَخَّ سوقها من وراء لحومها وحللها، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاج البضاء)، فبصره هناك غير بصره في الدنيا، بصره في الدنيا مقيد بقيود الظلمات، أما في الجنة فقد أخرجه الله إلى النور، فيرى مخ سوق زوجته، يخترق جسمها ببصره، لا يحده حجاب.

وفي الحديث: (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا)، فالله سبحانه وتعالى يمنحهم بنوره الاستطاعة على فعل ذلك، فهو لا يتمنى ويتعنى، كما يحدث في الدنيا، فهذه من آثار الظلمات، أما في الجنة، فإنه ينظر إلى الشيء فيتحقق له فورا.

وإطلاق إمكان الحركة، كما في الحديث الصحيح: (فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرف العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كاتقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفرس).

وفي قوله: (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا)، قال الطبري: (يفجرون تلك العين التي يشربون بها كيف شاءوا وحيث شاءوا من منازلهم وقصورهم تفجيرا)، وقال مجاهد: (يقودونها حيث شاءوا). وفي قوله: (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)، قال قتادة: (سلسة فهم يصرفونها حيث شاءوا)، وقال أبو العالية: (تسيل عليهم في الطرق وفي منازلهم).

ومهما خطر على قلبك من نعيم، فهو لا شيء بجوار ما أعده الله للمؤمنين والمؤمنات من نعيم مقيم، قال تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فما علمنا من النعيم مما ذكره القرآن فهو نعيم وملك كبير، فكيف بما خفي علينا، وفي الصحيحين: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر). فتأمل قوله: ولا خطر على قلب بشر، فكل ما خطر في قلوبنا من النعيم سيكون، ووراء ما لم يخطر على قلب بشر، وهو النعيم والملك الكبير.

والإنسان في الدنيا مشوب بالظلمات التي خلق فيها، ولذلك فهو غير قادر على رؤية ربه، (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)، وقد طلب موسى ذلك فقال الله له: (قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى

الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل: هل رأيت ربك، فقال: نور أنى أراه. أي كيف نرى ربنا ودونه حجب من النور، والبشر لم يؤولوا بعد لرؤية ربهم. أما في الجنة، فالمؤمن أصبح نورانيا تاما، وحينئذ يرى ربه، قال تعالى: (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ). وفي الحديث الصحيح: (إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته). وفي مسند البزار وغيره أن أهل الجنة يقولون لربهم: ("أرنا وجهك ننظر إليه"، فيكشف الله تبارك وتعالى الحجب، ويتجلى لهم تبارك وتعالى، فيغشاهم من نوره لولا أن الله قضى أن لا يموتوا لاحترقوا).



(٧)

(٧): الحمد لله الذي هدانا لهذا:

وأهل الجنة حين يدخلون الجنة يقولون: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)، فالنور الذي كان معهم في الدنيا هداهم في ظلماتها، وأتمه الله لهم في ظلمات القيامة، حتى خرجوا من كل تلك الظلمات إلى النور، وعندئذ يقولون: الحمد لله الذي هدانا لهذا، أي لهذا النور، وما فيه من نعيم مقيم.

فهي دارنا التي أعدها الله لنا، ولكنها دار من نور، وليس فيها إلا النور، فاقتضت سنة الله أن يختبر من يسكنها ويبتليها، فجعلهم في الظلمات أولاً، وهي ظلمات يضل فيها السالكون، ويحار فيها السائرون، وقد جعل الله فيها نورا هاديا، فمن اتبع ذلك النور، اهتدى إلى تلك الدار، ومن تخبط في الظلمات، وضل، فاللوم يقع عليه. (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ).



(٨)

(٨): وما يستوي الأعمى والبصير:

قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ)؟ وقال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا
الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ)

فالظلمات هي كل الظلمات التي تحدثت عنها سابقا، فهل
تستوي هي والنور؟ وهل يستوي الأعمى الذي لا يبصر النور، مع
البصير الذي يبصر النور. والأعمى درجات، فقد لا يرى بعينه (وهو
الأعمى المعروف بين الناس)، وقد لا يبصر بعينه (وهو الأعمى الذي
يسميه القرآن الكريم أعمى، الذي لا يبصر الحق). كذلك ما
يستوي الأعمى الذي يكبه الله في ظلمة جهنم، فيكون مخلوقا
ظلمائياً، ولا البصير الذي يدخله الله جنته، فيكون مخلوقا نورانياً.

فيا رب أتمم علينا نورنا، وأخرجنا من الظلمات إلى النور.



المبحث الثالث: تفسير آية النور (الله نور السماوات والأرض) (مدخل تفسيري)

قال تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ
شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

تضرب الآية مثل نور الله، وسأفصل القول فيها على النحو

التالي:



المطلب الأول: دلالات الألفاظ:

١ / (الله نور السماوات والأرض):

لم يرد في القرآن الكريم إطلاق لفظ النور على الله إلا مضافا إليه: نور الله، نوره، نور ربها. وفي السنة أيضا: نور وجهك.

(أ) أوجه إسناد الألفاظ إلى الله تعالى:

والناظر في القرآن الكريم يجد أن الإسناد إلى الله تعالى يكون بأحد الطرق التالية:

الأول: (إسناد الفعل)،

كقوله: (عَلِمَ اللهُ)، (سَمِعَ اللهُ)، (والله يقدر الليل والنهار)، (أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)، (فَبَيَّنَّتْهُمُ اللهُ مِنْهُ)، (بِشَاءِ اللهِ)، (وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ)، (يُحِبُّكُمْ اللهُ)، (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ)، (وَيَمَكُرُ اللهُ)، (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى)، (عَلَّمَ الْقُرْآنَ)، (وَعَضِبَ اللهُ)، (وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ)، (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)، (الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)، (فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ)، (وَجَاءَ رَبُّكَ)...

ولا نطلق من هذه الأفعال أوصافا لله إلا ما ورد النص به، فلا نقول: الله باني، أو مسوي، أو داحي... الخ، كما لا يجوز الإتيان إلا بالوصف الوارد، فلا أقول: سامع، (بل: سميع)، كما لا يجوز أن آتي بأسماء من هذه الأفعال إلا ما ورد النص به، فلا أقول: استواء الله، أو إتقان الله، أو إتيان الله، سبحانه وتعالى عما يصفون.

وقد يكون الفعل منضياً عنه سبحانه وتعالى، كقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)، وقوله: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ)، وقوله: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ)، وقوله: (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ)، وقوله: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا).

الثاني: (إسناد الاسم بإضافته إليه)،

سواء كان اسماً خالصاً الاسمياً، كقوله: (وَجْهٌ رَبِّكَ)، (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)، (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ)، (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي). ومنه قوله: (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ)، (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)، (وَيَذُكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ).

أو كان مصدراً بمعنى الفاعل، كقوله: (خَلَقَ اللَّهُ)، (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)، (فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)، (يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ)، (صُنِعَ اللَّهُ)، (بَطْشَ رَبِّكَ)،

أو مصدراً بمعنى المفعول، كقوله: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)، وقوله: (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ). ومنه أيضاً: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ)، (عُضْرَانِكَ رَبَّنَا).

وقد يجاء بـ(من) بعد المصدر، كقوله: (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، (مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ).

أو كان المضاف ظرفاً، كقوله: (فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ)، وقوله: (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)، وقوله: (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا).

أو مضافات أخرى، مثلاً: رسول الله، كتاب الله.

الثالث: (إسناد الاسم بالإخبار)،

أولاً: مجيؤه مبتدأ (أو في مقام المبتدأ)، ويكون الإخبار عنه:

- بالمفرد أو الجملة، كقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

- (باستخدام ذو) مضافة إلى الاسم خالص الاسمية، كقوله:

(ذُو الْعَرْشِ)، أو مضافة إلى المصدر، كقوله: (وَيَبْقَى وَجْهُ

رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)، (وَاللَّهُ

عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)، (ذُو الْقُوَّةِ)، (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ)،

- أو باستخدام الظروف: (مع)، كقوله: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ)، وقوله: (وَاللَّهُ مَعَكُمْ). و(فوق)، كقوله: (وَهُوَ

الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

- أو باستخدام الحروف، وقد جاء منه الحرف (في)، كقوله:

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)، و(على) في قوله: (إِنَّ

رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ثانياً: مجيؤه خبراً، أو في مقام الخبر. ويقترن بحرف الجر،

وجاء من ذلك:

- اللام، كقوله: (لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ)، وقوله: (وَلِلَّهِ

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)، وقوله: (بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً). وقد يكون

المخبر عنه للاستحقاق، كقوله: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ)، فالحمد

يستحقه الله سبحانه وتعالى. وهذا في الإثبات. وفي النفي،

كقوله: (أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً)، وقوله: (لَا

- شَرِيكَ لَهُ، وقوله: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).
 - و(من)، كقوله: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ)، وقوله: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ).
 - و(الباء) داخلا على (يده)، كقوله: (بِيَدِهِ الْمُلْكُ)،
 - و(إلى)، كقوله: (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)، وقوله: (وَلَيْتِنِ مُنْتُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ).
 - و(على)، كقوله: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا)، وقوله: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ).

ولا نطلق من هذه الأسماء أوصافا إلا ما ورد النص به،
 كالمَلِكِ، أو الحميد، أو الرحيم.

الرابع: (إسناد الصفة المطلقة)،

وهو المجيء بالصفة (مطلقة) إما إخبارا، أو وصفا، وهو كثير،
 كقوله: (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)، (إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)، (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)، (إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)، (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ). وأقصد بالصفة المطلقة غير المقيدة بإضافة لازمة. وهذا الوصف المطلق يرد منه اسمه فهو يتضمنه، فالرحيم ذو رحمة، والقدير ذو قدرة، والعليم ذو علم،

والعزیز ذو عزة، والمتکبر له الکبرياء. ولا یشتق الفعل منه إلا ما ورد به النص، فلا أقول: تکبر الله (من المتکبر)، ولا: حی الله (من الحی).

وقد جاءت هذه الصفات بالإفراد، وهو الغالب، وجاء بصیغة الجمع، كقوله: (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ)، وقوله: (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ). وجاء بالإضافة إلى الجمع، كقوله: (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)، وقوله: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)، وقوله: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، وقوله: (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

الخامس: (إسناد الصفة المقيدة بالإضافة)،

كقوله: (اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)، (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، فمالک لم یأت إلا وصفا مقيدا بإضافة، بخلاف (الملک) الذي جاء وصفا مطلقا، وجاء وصفا مضافا (مَلِكِ النَّاسِ)، فهو وصف مضاف ولكنه غير مقيد بالإضافة.

وقد يكون تقييده بالإضافة، ك(مالک)، و(عالم)، كقوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، (عَالِمِ الْغَيْبِ)، (إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فحيثما ذكر قيد بالإضافة، وكذلك علام: (عَلَّامُ الْغُيُوبِ)، بخلاف (علیم)، فهو غير مقيد بها. ومثل قوله: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، ففاطر وصف مقيد بالإضافة. وبدیع (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ). وجامع (رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ)، وفالق: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)، (فالِقُ الْإِصْبَاحِ).

وقد تكون الإضافة المقيد بها هي المراعاة في المعنى، كقوله: (وَهُوَ

أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)، وقوله: (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ).

وقد يكون مقيدا بالتمييز، كقوله: (وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا).

وقد يكون مقيدا بالجر، مثل: (فعال)، في قوله: (فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ)، و(قادر)، فحيثما ذكر قيد ب(على)، كقوله: (إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً)، وقوله: (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ)، بخلاف: (مقتدر)، و(قدير)، فقد وردتا مطلقتين ومقيدتين.

وقد يكون المشتق منفيًا، كقوله: (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)، وقوله: (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).



السادس: وقوعه مفعولاً أو في مقام المفعول.

وهو باب واسع، وسأستقصيه في بحث آخر، وهو يندرج تحت بابين عامين، أحدهما: أفعال الطاعة والإيمان، كقوله: (وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمُ)، وقوله: (قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، وقوله: (قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ)، وقوله: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ)، وقوله: (وَاتَّقُوا اللَّهَ)، وقوله: (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)...

والآخر: أفعال الكفر والعصيان، كقوله: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ)، (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ)...



فنحن ندعو الله ونثني عليه، بما وصف به نفسه، سواء بالوصف

المطلق أو المقيد أو الإخبار عنه، [القسم الثالث والرابع والخامس] فنقول: هو الله، الملك القدوس، عالم الغيب والشهادة، مالك الملك، ذو الفضل، ذو الرحمة... قال الزجاج: (لا ينبغي لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه).

وأما التسمية فلا تكون مضافة إلا إلى اسمه (الله)، أو الصفة المطلقة، فتقول: عبد الرحمن، عبد الغفور، عبد الشكور، أمة العليم. أما الوصف المقيد فلا يجوز تجريده، فلا نقول: عبد العالم (أخذنا: من عالم الغيب والشهادة)، ولا: عبد الفاطر (من: فاطر السماوات والأرض)، ولا: عبد المالك.



(ب) التحقيق في وجه إسناد (نور) إلى الله:

وبعد هذه المقدمة، نرجع إلى لفظ (النور)، فالنور اسم ورد مضافا إلى الله، كقوله: (نور الله)، (نور ربها). [وعليه فهو من القسم الثاني، كقوله: خلق الله، وفضله]. ولكنه ورد في قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فجاء شبيها بالوصف المضاف، كقوله: (فاطر السماوات والأرض). [القسم الخامس] فهل النور اسم أو وصف؟

تردد المفسرون في ذلك، ومن ثم رأى بعضهم أنه اسم، فأعرب آية النور على تقدير حذف (ذو)، أي: الله ذو نور السماوات والأرض، فيكون الإخبار عن الله بالاسم متوصلا إليه بـ(ذو)، كقوله: ذو الفضل، ذو رحمة... الخ، وهذا مذهب البصريين. وبعضهم اعتبره وصفا (بمعنى اسم الفاعل)، منير، وبه فسره بعضهم، فقالوا: الله منور السماوات والأرض، وهذا مذهب الكوفيين. وقال بعضهم أنه من باب التشبيه، كما تقول: أنت شمس، فالله نور السماوات والأرض، يفيد المدح.

والتحقيق أن (نور) ليس اسما خالص الاسمية، بل هو مصدر جرى مجرى الوصف، وبعض المصادر مشوبة بالوصف والاسمية، فتكون مثل الاسم فتضاف (نور الله)، وتكون مثل الصفات فيخبر بها (الله نور السماوات والأرض). وليست كل المصادر كذلك، بل بعضها، نحو: عدلٌ (تقول: عدلٌ محمدٍ، وتقول: محمد عدلٌ، بمعنى: عادل)، قال ابن مالك: (ونعتوا بمصدر كثيرا ❖ فالتزموا الأفراد والتذكيرا)، وقال ابن الحاجب: (والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل، يقال: ماءٌ غَوْرٌ: أي غائر، كما قال الله عز وجل: "إِنَّ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ

غَوْرًا"، ويقال: رجلٌ عدلٌ: أي عادل). ف(نور) مصدر نار ينور نورا ونورا، والغريب أن المعاجم لم تذكره، مع أنها تفسر آية النور به، نقل الأزهري في تهذيب اللغة: (وقال ابن عرفة: أي منور السماوات والأرض، كما يقولون: فلان غياثنا، أي مُغيثنا، وفلان زادي، أي مُرَوّدي؛ قال جرير: وأنت لنا نور وغيث وعِصمة).

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى تفسير قوله (الله نور السماوات والأرض) بأنه منورهما، جاء في فتح القدير: (ويبدل على هذا المعنى قراءة زيد بن علي، وأبي جعفر وعبد العزيز المكي «الله نور السماوات والأرض» على صيغة الفعل الماضي، وفاعله ضمير يرجع إلى الله، والسماوات مفعوله فمعنى "الله نور السماوات والأرض" أنه سبحانه صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلها وكمال تدبيره عز وجل لمن فيهما، كما يقال: الملك نور البلد، هكذا قال الحسن ومجاهد والأزهري والضحاك والقرظي وابن عرفة وابن جرير وغيرهم). وهذا يقتضي أن (نور) ليس اسما، بل وصف، مثل: فاطر السماوات والأرض، وقيام السماوات والأرض.

ويؤيد هذا حديثه عليه الصلاة والسلام الذي رواه مسلم: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن»، وفي البخاري: «قيّم السماوات والأرض.. ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن». فالإضافات كلها أوصاف: ملك، قيم، رب، وكذلك: نور.

فلفظ (النور) ليس صفة مطلقة، بل اسم مشوب بالوصفية، وقوله عليه السلام حين سئل: هل رأيت ربك، فقال: "نور أنى أراه"، وفي رواية: "رأيت نورا" [رواه مسلم]، فالمعنى كما قال ابن الأثير: كيف أراه وحجابه النور: أي إن النور يمنع من رؤيته. والسياق يدل على ذلك، فالرسول لم يخبر بأن الله نور، وإنما أجاب على السائل مبينا له أنه لا يمكن له رؤيته. ونقل ابن الجوزي عن ابن عقيل: (قد أجمعنا على أنه ليس بنور، وخطأنا المجوس في قولهم: هو نور. فإثباته نورا مجوسية محضة، والأنوار أجسام. والبارئ سبحانه وتعالى ليس بجسم، والمراد بهذا الحديث: "حجابه النور"، وكذلك روي في حديث أبي موسى، فالمعنى: كيف أراه وحجابه النور، فأقام المضاف مقام المضاف إليه)، ونقل النووي في شرح صحيح مسلم عن الإمام أبي عبد الله المازري: (الضمير في أراه عائد على الله سبحانه وتعالى، ومعناه أن النور منعه من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. وقوله صلى الله عليه وسلم "رأيت نورا" معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره). وهو النور الورد في الحديث الذي رواه مسلم: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

وعليه فلا يصح القول: الله هو النور. فنحن نقول في الله ما قاله في نفسه، أو ما علمنا نبيه، ولا نزيد على ذلك، ولسنا بحاجة إلى القياس العقلي، والقول: بأن النور لا يكون إلا من النور. فليس هذا مجالا لعقولنا لتخوض فيه، وحسبها أن تهتدي بنور ربها. ومن ثم فلا يصح التسمية بـ(عبد النور)، وليس لدى من أجاز حجة مقبولة.

فكل أسماء الله وصفاته سبحانه وتعالى، التي يسمى بها، تأتي بصيغ
الصفات المطلقة: الخالق، العزيز، الملك، العليم، الحي، الغفور... الخ.



٢ / (كمشكاة):

المشكاة - كما قال مجاهد (تفسير الطبري): هي الحدائد التي يعلق بها القنديل. لوعامة المفسرين فسروها بأنها: كوة غير نافذة، مع أن اللفظة في الحبشية تعني: كوة نافذة ينفذ منها الضوء إلى البيت، وقد نقل ذلك دوزي في تكملة المعاجم العربية عن معجم الحبشة، وبعضهم فسرها كما في البحر المحيط بأنها الأنبوب الحديد الذي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاجية.

والآية توضح أن المشكاة شيء يحتوي على زجاجة، والزجاجة داخلها المصباح، وهذا الوصف ينطبق على الحديد التي تُحمل عليها القناديل، وتعلق في السقف، وتسمى في العربية: (ثرياً)، كما في اللسان.

وقال الزجاج في معاني القرآن: (والمشكاة من كلام العرب)، وكذلك ابن جني يرى أن اللفظة عربية كما في اللسان. فعليه يكون أصل المادة (ش ك و)، والشكوة كما في اللسان (وعاء كالدلو أو القربة الصغيرة يجعل فيه الماء)، قال الراغب: (وأصل الشكوة فتح الشكوة وإظهار ما فيه، وهي: سقاء صغير يجعل فيه الماء، وكأنه في الأصل استعارة، كقولهم: بثت له ما في وعائي)، فدلالته على المشكاة بأنها شيء يوضع فيه شيء آخر للإفادة منه، كما يوضع الماء في الشكوة، وكذلك زجاجة المصباح توضع في المشكاة. والدلالة الأخرى هي التدللية، فقد كانت العرب تستخدم الشكوة لمخض اللبن، ثم يشربونه منها (انظر اللسان)، فالشكوة شيء يمخض ويرفع

إلى الشفاه لشرب ما فيه. وكذلك المشكاة شيء يوضع فيه زجاج
المصابيح، ويرفع إلى السقف، فيعلق فيه.

وقد وصف ابن جبير (ت ٦١٤ هـ)، في رحلته المسجد الحرام، ومما
فيه: (وفي الصفح الناظر إلى البيت العتيق من القبة سلاسل فيها
قناديل من زجاج معلقة توقد كل ليلة)، فهو يصف الثريا.

بدأت الآية بالحديث عن المشكاة، فهي الوعاء الذي يضم
الزجاجة، وداخل الزجاجة مصباح. ثم أتبع ذلك بالحديث عن
الزجاجة، حيث شبهها بالكوكب الدرّي (الرُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ
دُرِّيٌّ).



٣ / (كمشكاة فيها مصباح):

لم يقل: كمشكاة فيها زجاجة فيها مصباح، بل جاء التركيز في المصباح، وربطه بالمشكاة، وبالزجاجة. فهو يدل على أن المصباح يضيء المشكاة كلها، ولكنه لا يضيئها بطريقة مباشرة، بل عبر وسيط شفاف، هو الزجاجة، فهي التي تعكس ضوئه، وتحفظه من التبدد، وتساعد على توزيعه بعد ذلك. فتبدو المشكاة كلها منيرة.

كما أن الزجاجة وسيط شفاف، وفي حالة الضوء الشديد الحرارة والتوهج، فإن الزجاجة تمنع أيضا انتقال تلك الحرارة وذلك التوهج إلى خارجها، فالعين البشرية مثلا لا تحتمل الضوء الشديد، والضوء الشديد قد يؤدي إلى العمى. فضاء الشمس مثلا لا ينفذ عبر زجاجة الأرض (غلافها الجوي)، إلا بعد كسر شدته، ولو نفذ بشدته لأعمى الكائنات الحية.



٤ / (المصباح):

الصبح أول النهار، وهو مأخوذ من: (الصُّبْحَة)، والأصبح: الذي يكون في سواد شعره حمرة، قال الأزهري: (ولون الصبح الصادق يضرب إلى الحمرة قليلا، كأنها لون الشفق الأول في أول الليل). والعرب تستخدم مشتقات الإصباح والمصباح للدلالة على الإضاءة في الظلمة، فالصباح هو الذي يضيء ظلمة الليل، والمصباح يوقد في الظلمة (انظر اللسان)، ولذلك فسر ابن الأعرابي قول النمر بن توبل: فأصبحت والليل مستحكم، بأنه من المصباح، وقال في اللسان بأنه من الصباح على تقدير أن (البرق فرج له الظلمة حتى كأنه صبح). وفي أساس البلاغة: الإصباح: الإسراج، وفي اللسان: والشمع مما يُصْطَبَحُ به، أي: يُسْرَجُ به. وفي مقاييس اللغة: (الصاد والباء والحاء أصل واحد مطرد. وهو لون من الألوان قالوا: أصله الحمرة. قالوا: وسمي الصبح صبحا لحمرة، كما سمي المصباح مصباحا لحمرة. قالوا: ولذلك يقال: وجه صبيح. والصبح: نور النهار).

وكل مواد الجذر (ص ب ح)، تدل على اللون المشرق في ظلمة، وعلى إضاءة الظلمة بذلك اللون.

وفي القرآن الكريم جاء لفظ المصباح في هذه الآية، و(مصباح) في آيتين، قوله: (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)، (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)، فالمصابيح هي زينة السماء الدنيا، حيث تضيئها، وهي النجوم المضيئة، وهذا بخلاف الكواكب، وقد فرق القرآن بينهما في قوله: (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ)، فلم يقل: زينا

السماء الدنيا بالكواكب، كما قال بالمصابيح، بل قال: بزينة الكواكب، وقد احتار المفسرون في المعنى بلفظ (زينة) هنا، واعتبرها أكثرهم للتأكيد، فكأنه قال: بالكواكب. وليس الأمر كذلك، فالمصابيح زينة بذواتها للسماء الدنيا، فهي تضيئها، أما الكواكب فهي زينة للسماء الدنيا، ولكن زينتها مستمدة من إضاءة المصابيح لها، فهي تعكس أضواء النجوم (المصابيح)، فاختلف اللفظ باختلاف الصفات.

ويدل على ذلك أيضا أن القرآن الكريم يتحدث عن النجوم كونها هادية للناس، (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، (وَيَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). وحين يتحدث عن قيام الساعة يتحدث عن ذهاب ضوء النجوم (فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ)، (وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ)، أما الكواكب فيتحدث عنها كجرم، وليس جرما مضيئا، كما في آية الصافات، وآية الانفطار: (وَإِذَا الْكُوكَبُ انْتَرَتْ). وفي آية النور يبين أن الكوكب جرم دري، تشبهه الزجاجية، فهو يعكس الضوء، ولا يضيء. وسأبينه في الفقرة التالية.

وكذلك الشمس يسميها القرآن الكريم سراجا: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)، ووصفها بالوهاب (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا)، ووصف القمر بالمنير: (وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)، ففرق بين وصف الشمس والقمر، فالسراج يضيء بذاته، أما المنير فيعكس ضوءا آخر.



٥ / (الزجاجة):

قال الراغب: (الزجاج: حجر شفاف)، وفي اللسان: (الزجاج: القوارير)، وقال ابن جبير: (الزجاج: جوهر صلب سهل الكسر، شفاف يصنع من الرمل والقلى) أنقله عنه دوزي في تكملة المعجم العربية. والزجاج ليس جوهرًا، ولكنه كما في معجم اللغة العربية المعاصرة: (جسم شفاف صلب سهل الكسر، ينتج من صهر مخلوط كربونات الصوديوم والكربون والرمل "السيليكا"، ثم تبريد المصهور بسرعة؛ ليتجمد بلا تبلور). والزجاجة واحدة الزجاج، وتطلق على الوعاء الزجاجي الذي يحفظ شيئًا بداخله، كزجاجة المصباح، أو زجاجة الطعام، أو السوائل... الخ. وذكر المفسرون بأن من معانيها القنديل، ويستدلون على ذلك بأية النور، وهو من باب المجاز المرسل، حيث يسمى الشيء بما هو كائن فيه.

ولأن الزجاج جسم شفاف، فإن الضوء ينفذ منه، كما أن الزجاج له القدرة على كسر الضوء؛ فيكون الضوء النافذ مشعا في كل الاتجاهات، فتصبح الزجاجة كأنها المصباح.



٦ / (كوكب دُرِّي):

قال الزجاج: (منسوب إلى الدرّ في صفائه وحسنه)، وقرئت: دري، ودري، قال ابن عطية: (إما أن ينسب الكوكب إلى الدر لبياضه وصفائه، وإما أن يكون أصله دري مهموز من الدرء وهو الدفع... وهو فعيل من الدرء، بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً، أو بمعنى أن بهاءها يدفع خفاءها). قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (الداال والراء في المضاعف يدل على أصلين: أحدهما تولد شيء عن شيء، والثاني اضطراب في شيء... والدرّ: كبار اللؤلؤ، سمي بذلك لاضطراب يرى فيه لصفائه، كأنه ماء يضطرب). وفي اللسان: أيضا: (وأدرت المرأة المغزل، إذا فتلته فتلا شديدا فرأيته كأنه واقف من شدة دورانه)، وقال ابن سيده في المخصص: (ويكون أيضا من النجوم الدراري التي تدراً، أي: تنحط وتسير).

تحدث البيروني في الجماهر عن خصائص الدر ومواصفاته، وفيه: (وأفضل اللؤلؤ ما حسن لونه وكثر ماؤه وبريقه، وبعضه يشبه الزيتونة، ويسمى: زيتوني، وبعضه مثل البيضة ... واللؤلؤ يشابه البصل في التفافه طبقاً عن طبق. والدر هو أشرف اللؤلؤ وأكبره).

والخلاصة أن الدرّة تتسم بسمات أساسية، من حيث اللون والتألؤ والشكل: (اللون) فهي صافية اللون، لونها كأنه لون الماء، وبذلك فهي شفافة، كشفافية الزجاج. (التألؤ): فالدرّة متألئة، ولذلك توصف بالبريق واللمعان، فهي تتألأ حين يسقط الضوء عليها. (الشكل): وأما شكلها فثمة أشكال عدة، وأفضلها الشكل

المستدير، كالبيضة، أو كالكرة، وتتكون من طبقات عدة.

فقوله: (كوكب دري)، أي: متألئ كتألؤ الدرّة، ويحتمل معنى الاستدارة أيضا، كالزيتونة أو البيضة، وأيضا شفافية غلافه الجوي، كشفافية الزجاج، فيسمح بنفاذ الضوء.

كما أن الدرّي من الحركة أيضا، فهو الذي يدور بشدة فيظن الناظر إليه أنه واقف من شدة دورانه. وتشبيه الزجاج به يعني أنه ليس مضيئا بذاته، فالزجاج لا تضيء ولكنها تقوي ضوء المصباح، وتعكسه، وتسمح بنفاذه، وكذلك الكوكب الدرّي لا يضيء بذاته، ولكنه يعكس الضوء من مصابيح السماء، ويسمح بنفاذ الضوء، كما أن غلافه الشفاف يجعل من الإضاءة داخله قوية جدا، كما تجعل الزجاج الإضاءة داخلها شديدة.



ما الذي يوقد؟ قال بعض المفسرين: الكوكب، وقال بعضهم: المصباح. والذي يترجح أنه المصباح. فالسياق يركز في المصباح، ويبين العوامل الأخرى المؤثرة في إضاءته، فبدأ بالحديث عن الزجاجاة التي يكون المصباح فيها، وأنها تشبه الكوكب الدرّي. ثم انتقل إلى الحديث عن إيقاد المصباح ومصدر وقوده. فالتركيب هكذا:

المصباح: (١) في زجاجة كأنها كوكب دري. (٢) يوقد من شجرة مباركة زيتونة.

وَوَقَدَ الشَّيْءُ يَقْدُ وَقُودًا، أَي: اشْتَعَلَ، وَأَوْقَدَهُ: أَشْعَلَهُ، (كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ)، وَأَوْقَدَ الْمَصْبَاحَ: أَضَاءَهُ، وَتَوَقَّدَ الْمَصْبَاحُ: اشْتَعَلَ، أَوْ تَلَأَلَا وَلَعَّ وَأَشْرَقَ. وَالْوَقُودُ: الْمَادَّةُ الَّتِي يَشْعَلُ بِهَا الشَّيْءُ، (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ). فإيقاد المصباح: إشعاله ليضيء ويتلألأ.

وقوله (يُوقَدُ)، أي أن المصباح يوقده شيء آخر، وهنا يفرق بين الإضاءة والإيقاد، فالمصباح ذاتي الإضاءة، بمعنى أن ضوءه ينبعث منه، ولكنه ليس ذاتي الوقود، بل يستمد وقوده من شيء آخر.



٨ / (يوقد من شجرة):

في الآية بيان أن المصباح يوقد من (من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية).

وقد قال المفسرون: يوقد من زيت شجرة، فحذف المضاف، وليس الأمر كذلك، فالآية لا حذف فيها، وقد اطرده في القرآن الكريم بيان أن الشجر هي مصدر الوقود، كالأية، وكقوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)، وقوله: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاحًا لِلْمُقْوِينَ). فالوقود الذي توقد به المصابيح من الشجر نفسه. والوقود الطبيعي - كما هو معروف - يحصل عليه الإنسان من المخزون الواقع تحت الأرض، الذي تكون من بقايا النباتات والحيوانات.

كما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن في النار شجرة عظيمة هي شجرة الزقوم، قال تعالى: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)، وقد أبدى أبو جهل استغرابه أن تكون شجرة في النار، أما اليوم فهذا غير مستغرب، بعد أن تبين للناس أن النار توقد من الشجر، فشجرة الزقوم تخرج في (أصل) الجحيم، نقل ابن الجوزي في زاد المسير (قال الحسن: أصلها في قعر النار، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها). والتعبير: تخرج في، وليس تخرج من، فهي لا تنشأ من النار، كما قال بعض المفسرين، بل تخرج في قعرها، وخروجها في قعرها لإيقاد النار، فهي الشجرة التي توقد جهنم، كما أن نار الدنيا توقد من شجرها،

فكذلك نار جهنم توقد من شجرة الزقوم. ولذلك سماها الله بالشجرة الملعونة (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)، ودليل ذلك أنها الشجرة الملعونة قوله: (أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ)، فهي الشجرة التي جعلها الله فتنة للناس.

وتأمل قوله: (إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامٌ لِّلْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ)، وقرئ: تغلي، فشبهه طعامهم من الشجرة بالمهل، وهذا يدل على أنه طعام سائل، والمهل أي: الزيت، وقيل: دُرْدِيّ الزيت، وقيل: النحاس المذاب، فالخلاصة أنه زيت الوقود. وفي مسند أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو أن قطرة من الزقوم قطرت، لأمرت على أهل الأرض عيشهم)، فهو يبين أن الزقوم طعام سائل. وهو كالمهل، كما في الآية، فالزقوم شجرة ذات زيت، وزيتها يوقد النار، وهي طعام أهل جهنم، وحين يأكلونها تغلي في بطونهم أيضاً، وحين يأكلونها فإن هذا يزيد في إحراقهم، وإشعالهم، كما يزيد الزيت من إحراق الفتيلة؛ فأهل جهنم وقود جهنم (وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ)، والشجرة هي الزيت الذي يُشعل به ذلك الوقود.

وقوله: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)، فجمع بين النجم والشجر، وفي سورة النور بين أن المصباح يوقد من شجرة، والقرآن الكريم يسمى النجوم مصابيح، فهي توقد من شجرة أيضاً، وقد أشكل الجمع بين (النجم والشجر) على المفسرين، والنجم في القرآن لا يرد إلا للدلالة على مفرد النجوم، فأية النور تبين لنا لماذا الجمع بين النجم والشجر،

أي: الشجر الذي توقد منه النجوم، فكل شيء يوقد من شجرة، وجهنم نفسها توقد من شجرة الزقوم التي تخرج في أصل الجحيم. فالآية تبين أن النجم والشجر الذي توقد منه، كلاهما يسجدان لله، سبحانه وتعالى.

إذن فثمة علاقة بين الشجر والوقود، فهي وقود المصباح، وهي وقود نار الدنيا، وهي وقود مصابيح السماء وشموسها، وهي وقود جهنم. هذه الشجر التي جعلها الله حياة للبشر؛ فمنها يأكلون، فتستمر حياتهم، هي نفسها التي جعلها الله طعاما للنار، فمنه تأكل النار، ويستمر اتقادها. ولاحظ كيف جمع الله بين كون الشجر طعاما للناس، ووقودا لنارهم، قال تعالى في سورة الواقعة: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)، ثم قال: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ). فالشجر هو طعام البشر، وطعام الشرر.



٩ / (من شجرة):

ما الشجرة؟

قال الطبري: (هي شجرة لا يضيء عليها ظلّ شرق ولا ظلّ غرب، ضاحية، ذلك أصفى للزيت). ونقل ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس: (شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواربها شيء هو أجود لزيته). وقال البغوي: (من شجرة مباركة زيتونة، أي من زيت شجرة مباركة، فحذف المضاف، بدليل قوله تعالى: "يكاد زيتها يضيء"، وأراد بالشجرة المباركة: الزيتون وهي كثيرة البركة، وفيها منافع كثيرة لأن الزيت يسرج به وهو أضوأ وأصفى الأدهان)، وقال الرازي: (أي كثيرة البركة والنفع، وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا، منهم الخليل، وقيل المراد زيتون الشام، لأنها هي الأرض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة). وقال الحسن: (ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره). وهناك أقوال كثيرة في الآية.

وبالتأمل في الشجرة نجد أنها وصفت بأربع صفات، هي:

الأول: مباركة، والثانية: زيتونة، والثالثة: لا شرقية ولا غربية،

والرابعة: يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار.



١٠ / (مباركة):

فمباركة، أي: بارك الله فيها، ففيها بركته. قال ابن فارس: جذر: ب ر ك، يدل على ثبات الشيء، فبروك الإبل: ثباتها في مناخها، وابتركوا في الحرب: جئوا على ركبهم، (ثبتوا ولازموا الحرب). وقال الراغب: اعتبر فيه معنى الثبوت واللزوم، والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، وسميت البركة (وهي حوض الماء) لثبوت الماء فيها وإقامته. وقوله: أنزلني منزلاً مباركاً، قال: أي حيث يوجد الخير الإلهي، والمبارك: موضع الخيرات الإلهية. قال: ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبَارَكٌ، وفيه بركة. قال: وقوله تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً" فتنبه على ما يفيضه علينا من نعمه بواسطة هذه البروج والنيرات المذكورة في هذه الآية، وكلّ موضع ذكر فيه لفظ «تبارك» فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر «تبارك».

والبركة، تأخذ مجموعة من الدلالات، فلا تقتصر على ما قاله الراغب: ثبوت الخير ودوامه في الشيء، ففي القرآن الكريم تخصيص لأشياء دون أشياء بالبركة، وكلها فيها الخير الإلهي الدائم، فمثلاً: الكتب الإلهية المنزلة كلها فيها الخير، ولكن لم يقترن لفظ البركة إلا بالقرآن الكريم، وكذلك الليالي، لم تقترن البركة إلا بليلة القدر التي نزل فيها القرآن... الخ. فالبركة شيء زائد على ثبات الخير، فهي كما يبدو لي من استخدام القرآن الكريم لهذا اللفظ: ثبوت زيادة نامية من الخير في الشيء. فالذي يثبت في الشيء ليس

الخير، ولكن زيادة نامية، أي مستمرة، تنمو باستمرار، في الشيء. فالقرآن الكريم كتاب مبارك، أي جعل الله فيه زيادة الخير، وهي زيادة ثابتة لا تزول، ونامية لا تنقص ولا تقف. وكذلك الليلة المباركة، وكل شيء باركه الله فكذلك.

فالشجرة المباركة، هي شجرة جعل الله فيها زيادة خير ثابتة نامية. فكل الشجر جعل الله فيها خيراته، ولكن الشجرة المباركة، جعل الله فيها زيادة خير، زيادة ثابتة لا تزول، ونامية لا تنتهي.

وهذه الدلالة تذكرنا بشجرة ذكرها القرآن الكريم ووصفها بأنها طيبة، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ). فهي شجرة طيبة، أي زاكية، ذات خير دائم، لا ينقطع، ولذا وصفها (تؤتي أكلها كل حين)، فأكلها غير منقطع أبدا، بل يستمر في كل حين. فهل توجد شجرة من أشجار الدنيا تتصف بهذا الوصف؟ وقوله (أصلها ثابت وفرعها في السماء)، فهي ثابتة الأصل، لا تزول أبدا، وفرعها في السماء، وقد فسر المفسرون السماء بالعلو، أي عالية، وهذا معنى محتمل، ومن المحتمل أيضا أن يكون المعنى على ظاهره، أي أن هذه الشجرة الطيبة فرعها في السماء.

والشجرة الخبيثة، والخبيث خلاف الطيب، لا يزكو، وليس فيه خير، لا قرار لها. وهي تماثل الشجرة الملعونة، فالملعونة التي حلت بها

اللعنة، فلا خير فيها، ولا بركة، ولا تزكو ولا تثمر.

وقال جمهور المفسرين بأن الشجرة الطيبة هي النخلة، وقال ابن عباس: هي شجرة في الجنة. وكذلك الشجرة الخبيثة، فسرها بعضهم بالحنظل، وقال بعضهم أنها شجرة لم تخلق على الأرض. (انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري).

ويتضح من وصف الشجرتين، أنهما ليسا من أشجار الأرض، فلا توجد شجرة في الأرض بهذه الصفات، سواء صفات الشجرة الطيبة أو الخبيثة. فالشجرة الخبيثة - والله أعلم - هي الشجرة الملعونة في القرآن، التي تخرج في أصل الجحيم، فهي مثل الكلمة الخبيثة، التي توصل قائلها إلى جهنم والعياذ بالله، فيكون طعامه من تلك الشجرة الخبيثة.

والشجرة الطيبة الزاكية النامية هي الشجرة المباركة، التي جعل الله فيها زيادة الخير ثابتة نامية. وسنكمل بقية أوصافها، لمحاولة الاقتراب من دلالتها.



١١ / (زيتونة):

أعربها بعض النحاة أنها عطف بيان، على (شجرة)، وأنكر جمهورهم ذلك، وقالوا: لا يكون عطف البيان نكرة، وأعربوها بدلا من (شجرة)، ودلالتهما واحدة، فالتقدير: من زيتونة.

ويشكل على إعرابها بدلا، أنه يشترط أن يكون المبدل (في بدل الكل من الكل) مطابقا للمبدل منه، نحو: أحب الفاروقَ عمرَ، فعمر هو الفاروق، والفاروق هو عمر، فثمة مطابقة تامة، والمبدل عين المبدل منه، وتستغني بأحدهما عن الآخر، فلو قلت: أحب الفاروق، لفهمت دلالته، وهي الدلالة نفسها في قولك: أحب عمر.

وأما (زيتونة)، فلا تطابق لدالتها شجرة، ف(شجرة) قد تكون زيتونة وقد تكون نخلة، وقد تكون غيرهما، ومن ثم فلا يكون المبدل أخص من المبدل منه، بل لا بد أن يكون المبدل هو عينه المبدل منه، بحيث يغني أحدهما عن الآخر، فالشجرة ليست عين الزيتون، بل هي جنس يشملها ويشمل غيرها.

(ولا أحد يعربها بدل جزء من كل، نحو: مسحت الطفل رأسه، فرأس الطفل هو جزء حقيقي من ذات الطفل. ولا بدل اشتمال، نحو: أعجبتني الزهرة لونها، فالزهرة تشتمل على اللون والرائحة والمنظر... الخ، ونحو: أعجبتني الفاروق عدله).

فالقول بأن (زيتونة) بدل، دونه مفاوز كثيرة، وقد دفع النحاة إلى القول به، أن المفسرين فسروا (زيتونة) في الآية بأنها: شجرة الزيتون، فجعلوها اسما. ولو كانت شجرة الزيتون لقال: من زيتونة

مباركة، فلا يسوغ القول: أكلت من شجرة نخلة، بل تقول: أكلت من نخلة، والقرآن الكريم هو أفصح القول وأبينه.

ثم إن العربية حين تبين الجنس، فإنها لا تبدل أحد أنواعه منه، بل لها ثلاث طرق، الأول: تأتي بحرف (من) لبيان الجنس، كقوله: (وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ)، ف(شجرة) اسم جنس يشتمل على أنواع كثيرة، كاليقطين والزيتون... فلما أراد بيان هذا الجنس بأحد أنواعه استخدم (من). ومثله قوله: (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ)، فالأساور قد تكون ذهباً أو فضة أو غيرهما، فبين الجنس باستخدام (من)، وكذلك الثياب اسم جنس، بينها ببعض أنواعها (من سندس). وفي قوله: (يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ)، فحذف اسم الجنس واكتفى ببيان نوعه، أي: يلبسون ثياباً من سندس. والثاني: بالإضافة، يضاف اسم الجنس إلى نوعه، كقوله: (عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ). والثالث بالتمييز المنصوب، نحو: عندي أوقية ذهباً، ويبين جنس العدد والمقادير. وكلها على تقدير (من)، فتقول: عاليهم ثياب من سندس، وعندي أوقية من ذهب.

ثم إن اللغة العربية حين تأتي بالصفة من الاسم فإنها تحوله صفة بالنسب إليه، نحو: ذهبي، سندسي، مثلاً تقول: تحلت بأساور ذهبية (أي: من ذهب). ولو أراد ذلك في الآية لقال: من شجرة زيتونية، فتكون النسبة إلى الزيتون اسماً.

كما أن الموصوف في العربية يتقدم على الصفة، فلو كانت بدلاً

(على افتراض صحة ذلك) لقدمت على الصفة، فيقول: من شجرة زيتونة مباركة، فيصفها بالبركة بعد أن يبينها، فالصفة في العربية تأتي بعد الموصوف لا قبله، لا تقول: هذه مباركة نخلة، بل تقول: نخلة مباركة. والنحاة يعربون (مباركة) صفة لـ(شجرة)، لا (زيتونة)، ولكن إبدالها منها في تقدير أن الصفة لها. وليس لهذا مثال في القرآن الكريم.

(زيتونة) هنا، جاءت صفة ثانية لـ(شجرة)، فوصفت الشجرة بأنها مباركة، وأنها زيتونة. و(زيتونة) هنا صفة مؤنثة لـ(شجرة)، فهي مؤنث: زيتون، [وليست في هذا الموضع اسما مفردا لـ: زيتون].

و(زيتون)، بناؤه فَعْلُون، من الزيت، فزيدت الواو والنون، وهو مذهب جمهور اللغويين والنحاة، قال ابن سيده: (زيتون بزنة فَعْلُون؛ لأنه من الزيت)، وهذا الوزن ورد في ألفاظ معدودة: زَيْتُون، ومَيْسُون، فـ(مَيْسُون) كما في تاج العروس: (فَعْلُون من ماس يَمِيس)، والميسون الأصل فيه الوصف، قال الزبيدي في تاج العروس: (الميسون في اللغة: المياسة من النساء، وهي المختالة)، وبه سميت المرأة: ميسون. فالوصف هو الأصل فيه، وبناء فَعْلُون دل على زيادة في الوصف، فـ(امرأة مَيْسُون) يدل على زيادة في الميس والتبختر، أكثر من قولك: امرأة مياسة. وكذلك: الزيتون، قال الأزهري في تهذيب اللغة: (الزيتون: معروف، والنون فيه زائدة، ومثله قَيْعُون أصله القَيْع، وكذلك الزيتون: شجرة الزيت، وهو الدهن)، وفي اللسان: قيعون من القاع، قال ابن دريد: كلاً قَيْعُون، إذا تم وطال، فورد صفة للعشب.

فإلخلاصة أن: بناء (فَعَلُونَ)، الأصل فيه الوصف، ثم استخدم
اسما بعد ذلك، فزيتون، وصف لشجرة الزيت، وقد شاع إطلاقه على
الشجرة المعروفة.

ومن ثم ف(زيتونة) في الآية جاءت وصفا لا اسما، والمعنى: يوقد
من شجرة مباركة، أي: ذات بركة، زيتونة، أي: كثيرة الزيت.



١٢ / (لا شرقية ولا غربية):

جاء لفظ (شرقي) في القرآن الكريم في قوله: (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرِيماً إِذِ اتَّبَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)، ولفظ غربي في قوله: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ). فالشرقي: هو الشيء الذي يكون من جهة الشروق، فتصيبه الشمس إذا طلعت ولا تصيبه إذا غربت، والغربي: هو الشيء الذي يكون من جهة الغروب، فتصيبه الشمس إذا غربت فقط. والحد بين الشروق والغروب منتصف النهار، فما قبله شروق، وما بعده غروب.

وقد اختلف المفسرون في قوله (لا شرقية ولا غربية)، فقيل نسبة إلى المكان، وهو الشام، فهو بين المشرق والمغرب، ولا يوصف بأحدهما. وقيل: أنها شجرة تحيط بها الأشجار فلا تصيبها الشمس لا في شروقها ولا في غروبها، وقيل: شجرة بارزة فتصيبها الشمس في شروقها وفي غروبها، والمعنى لا هي شرقية فقط ولا هي غربية فقط. وقال الحسن: (ليست هذه من أشجار الدنيا ولو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وإنما هو مثل ضربه الله لنوره)، وقال عكرمة: من أشجار الجنة. (انظر هذه الأقوال ومناقشتها في تفسير الرازي والقرطبي). وكل هذه التأويلات محل نظر ونقاش.

وهذا الوصف ما زال مشكلا عليّ، والذي أميل إليه أنه يصف شجرة ليست من أشجار الأرض، ولا هي في مكان تشرق عليه شمس من شمس السماء أو تغرب. وهذا الوصف يبين مكان الشجرة، فهي

في مكان لا شرقي ولا غربي، ولا تطلق عليه هذه الأوصاف. فهي
شجرة لا تنضج بتعاقب الليل والنهار، ولا بضوء الشمس، ولكنها تثمر
وتستمد بقاءها من نور الله.



١٣ / (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار):

هذه الشجرة الزيتونة (كثيرة الزيت)، تضيء المصباح بزيتها حين تمسه النار، فيشتعل، ثم يضيء. ثم يبين تعالى أن زيت هذه الشجرة يكاد يضيء المصباح ولو لم تمسسه نار، بمعنى أن فيه خاصية الإضاءة الذاتية، فيكاد يضيء ولو لم يشتعل بالنار. و(يكاد) يعني أنه ليس كذلك، ولكنه قريب جدا من أن يكون كذلك، وهذه دلالة (كاد يكاد). وهذا الوصف مشعر أن زيتها يختلف عن سائر الزيوت، التي تشتعل إذا مسها النار، وإلا لم يكن للوصف فائدة.



إن هذه الأوصاف لا تنطبق على شجرة من أشجار الدنيا، فاستخراج الزيت النباتي يكون من شجرة الزيتون ومن غيرها، كالسمسم، والذرة، والجوز، والنخيل. كما أن تأويلات المفسرين لقوله (لا شرقية ولا غربية) تنطبق على الزيتون وعلى غيرها من الأشجار التي تزرع في الشام، أو تزرع في مكان ضاحٍ للشمس. كما أن زيت الزيتون يشتعل كغيره من الزيوت، ونظراً لخصائصه المتميزة فإن الإنسان يستخدمه غالباً لصحته وغذائه. وعليه يمكن تأويل الشجرة بأنها الزيتون، أو النخيل، أو غير ذلك.

لقد جاء الحديث عن هذه الشجرة منكرة (شجرة)، فهي شجرة لا عهد للإنسان بها، ولا يعرف عنها إلا ما أخبره الله. ونلاحظ أن هذه الشجرة والشجرة الطيبة كلاهما جاء نكرة (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ)، (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ)، وكذلك الشجرة الخبيثة (كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ)، وأما شجرة الزقوم فعرفها وبينها: (أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)، ولذلك عرفت في قوله: (وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ).

هذه الشجرة جاء الحديث عنها، بأنها:

- ١) (يوقد من شجرة): فهي وقود للمصباح.
- ٢) (شجرة): لا يعرفها الإنسان ولم يعهدها.
- ٣) (مباركة): وهو وصف يبين اختصاصها ببركة ليست في

سواها من الأشجار.

(٤) (زيتونة): وهذا وصف يبين مادتها التي تنتجها، فهي زيتونة، يغلب عليها الزيت، أو كثيرة الزيت، أو لا تنتج إلا الزيت.

(٥) (لا شرقية ولا غربية): وهذا وصف يبين مكانها، فهو مكان لا تشرق عليه الشمس أو تغرب، ومن ثم فالشجرة لا توصف بأنها شرقية أو غربية، وما من شيء في الأرض إلا يمكن القول عنه أنه شرقي أو غربي.

(٦) (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار): وهذا وصف يبين خاصية زيتها، الذي يكاد يضيء بدون نار، فهو لا يشتعل ثم يضيء، بل يضيء دون اشتعال.

ونربط هذه الشجرة بالمثل المضروب في الآية، فالله ضرب مثل نوره بمشكاة (فيها مصباح في زجاجة)، يوقد مصباحها من هذه الشجرة المباركة الزيتون. ونوره هو نور السماوات والأرض، فالشجرة لها صلة بالنور الذي في السماوات والأرض.

والمصابيح في القرآن الكريم هي النجوم المضيئة، فهي توقد من شجرة مباركة زيتونة، ولا ندري ما النار التي تمس زيت هذه الشجرة فتوقد كل هذه المصابيح التي في السماء، وزيتها يكاد يضيء تلك المصابيح ولو لم تمسسه نار.

وقد تكون هي الشجرة الطيبة، (أصلها ثابتٌ وفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ

(٢٤) تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)، فأصلها ثابت لا يزول ولا يتزحزح، ولا نعلم أين، وفرعها في السماء، فالسما هنا ليس كناية عن العلو، بل يمتد إلى السماء حقيقة، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، (كل حين) أي لا ينقطع أبدا، في كل لحظة تؤتي أكلها، فأكلها دائم، والله يعلم المخلوقات والدواب المبتوثة التي تنتفع بهذا الأكل. ووصف الله الجنة بأن أكلها دائم، قال تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا)، فأكلها دائم يعني أنها تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وظلها دائم يعني أنها لا شرقية ولا غربية.

ولا توجد شجرة في الأرض كذلك، فهذه الشجرة وصفت بالطيبة؛ لأنها تؤتي أكلها كل حين، ووصفت بالمباركة؛ لأنها زيتونة توقد منها المصابيح.

والملاحظ أن الآيتين أعقبهما الله بقوله: (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ)، ولم يرد بهذا التركيب في سواهما. فهو مثل مضروب، وغرضه أن يدرك الإنسان أبعاده، ودلالاته، وما مثل له، وهذا يتحقق ولو لم يعلم حقيقة تلك الشجرة. فالإنسان في الأرض يستطيع إدراك دلالة المثل، من سنن الله المطردة في الأرض وغيرها، فوقود الناس في حياتهم من شجر، كما قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)، فهو يوقد المصابيح من زيت الأشجار ومن غيرها. وبهذا يتحقق المثل، فالإخبار في الآية لا يهدف إلى إخبارنا عن الشجرة، كما في قوله (أَذَلِكْ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ

في أصل الجحيم)، فالسياق هنا يهدف إلى إخبارنا عن الشجرة، ولذلك عرفها، وتحدث عنها. أما الشجرة المباركة فإن السياق يضربها لنا مثلاً، فالسياق يركز في المثل لا في الشجرة، فجاءت نكرة (شجرة)، ووصفها ببعض الأوصاف التي تحقق دلالة المثل، وحين وصفها بأنها (زيتونة)، أعقبها بقوله: (لا شرقية ولا غربية)؛ حتى لا يظن الإنسان أنها شجرة الزيتون، أو غيرها من أشجار الأرض، فلا شيء منها إلا وتتصف بكونها شرقية أو غربية، لا محالة.

ومن ثم يمكن القول أن قوله: (كمشكاة فيها مصباح المصباح في الزجاجاة)، يصف تجمعات المصابيح في السماء، فالمصابيح (النجوم) تحيط بهن زجاجاة (غلافها الخارجي)، كغلاف المجموعة الشمسية، أو المجرة...، وكل زجاجاة هي في المشكاة، وكل مشكاة معلقة بالسقف (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا)، ففي السماء من المشاكي (ج: مشكاة)، ما الله به عليم، فالمشاكي عنقودية، هناك مشكاة أكبر تضم كل المشاكي التي تحتها، وتحتها مشاكي أصغر فأصغر، وهكذا تبدو صورة السماء. ولذلك أخبر سبحانه أنه زين السماء الدنيا بمصابيح. فهن معلقات فيها كما تعلق الثريا في السقف فتزين البيت. والمصابيح توقد من شجرة مباركة، فتضيء الزجاجاة التي فيها، فتكون الزجاجاة منيرة، ونورها ينعكس على المشكاة التي تحملها، (مع تفاوت هذا النور)، فتصبح المشكاة نيرة، فهو نور على نور، نور الزجاجاة على نور المشكاة، فتتألأ مشاكي السماء بالأنوار^(٢).

(٢) جاء في موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في مواجهة الشبهات،

ص ١٨٩ - وما بعدها، ما يلي: وصف الله الزجاجة بأنه كالكوكب الدرّي، وبأن الزجاجة لا تضيء بذاتها، ولكنها تقوي وتعكس الضوء من داخل المصباح، وتجعله نورا يستنار به. والكوكب كالزجاجة لا يضيء وليس فيه مصدر ضوء، ولكنه يعكس الضوء من مصدر آخر، وهو المصابيح (النجوم)، كما تقتبس الزجاجة النور من المصباح.

١٥ / (نور على نور):

(نور على نور) ماذا يفيد هذا التركيب؟

قال أبو حيان: (أي متضاعف)، وقال الألويسي: (وليس معنى كونه نورا فوق نور أنه نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط، بل إنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين). وقال ابن عاشور: (أيضاح أن الهيئة المشبه بها قد بلغت حد المضاعفة لوسائل الإنارة؛ إذ تظاهرت فيها المشكاة والمصباح والزجاج الخالص والزيت الصافي). وغيرهم من المفسرين على أنه يفيد المضاعفة.

التحقيق في الآية:

المعنى الأصلي في (على) للاستعلاء، وعليه تُخَرَّج آية النور: نور على نور، أي: نور فوق نور، فهذا يفيد الطبقيّة، الحسية والمعنوية، فهو نور طبقات، بعضها فوق بعض، وكل طبقة لها خصائص تختلف عن خصائص الطبقات الأخرى. وإن كان كلها مردها إلى نور واحد، كالمصباح نوره واحد، ولكنه يتفاوت، فما يخرج من الزجاج يختلف عن النور الذي يكون عن المشكاة، ويختلف عن النور الذي يكون أبعد من ذلك، فقوته بجوار المصباح تختلف عن قوته بعيدا عنه، وهكذا حتى يتلاشى.

فالدلالة الدقيقة لـ(نور على نور)، ليست المضاعفة والتعبير عن أقوى ما يكون النور، ولكنها تدل على الطبقيّة المتفاوتة، فهو نور واحد ولكنه طبقات تتفاوت شدة وضعفا. وهذه الدلالة أيضا لقول المتنبي:

أَرْقٌ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ ❖ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتْرَقُّ

قال الواحدي: (أرق بعد أرق)، وقال المعري في شرحه: (أرق مع أرق، فهو يعبر عن دوام الأرق)،

وعندي أنه يتحدث عن أرق أصابه، إلا أنه يقول أنه ليس أرقا ذا وتيرة واحدة طوال الليل، بل هو أرق متفاوت، يزداد شدة ويضعف، بحسب ما يعتصره من حزن (جوى) يزيد ويقل، فتترقق عبراته، فهو في أرق طبقي، بعضه فوق بعض.

وكذلك قوله (نور على نور)، أي نور طبقي، فهو نور واحد ولكنه طبقات متفاوت. فهذه الجملة تقابل قوله (ظلمات بعضها فوق بعض)، فهي ظلمة فوق ظلمة، وكل ظلمة أشد من الأخرى، والجمع (ظلمات) يفيد اختلافها، فهي ظلمات مختلفة. أما النور فلم يرد جمعا، بل ورد مفردا حيث ذكر، فهو نور واحد، ولكنه متفاوت، ومتدرج، متدرج القوة ومختلف الخصائص.

وآيات سورة النور جاءت لتبين الدلالة الدقيقة لـ(نور على نور).
كما سآبينها في الفقرة التالية.



المطلب الثاني: مثل نوره

هذا المثل ضربه الله لنوره (الذي نور به السماوات والأرض)،
والمثل يتجلى في أمرين،

الأول: يبين الكيفية التي نور الله بها السماوات والأرض، فهو
يقول لهم: لتعرفوا كيف نور الله السماوات والأرض، فانظروا إلى نور
المشكاة، كيف يتفاوت، قرباً وبعداً، شدة وضعفاً.

فنور المصباح الذي هو أقرب للزجاجة، يختلف شدة عن نور
المصباح الذي هو أبعد منها وأقرب للمشكاة، وهكذا كلما ابتعدنا.
فمثل المشكاة لا يبين لنا قوة النور، وإنما يبين لنا اختلاف شدة النور،
وطبقيته، وكذلك اختلاف موجاتها وأطوالها، وما يترتب عليه من
اختلاف الإدراك، فإدراك الإنسان للألوان مثلاً يختلف عنه في
الحيوان، بل إدراك الناس ليس بدرجة واحدة. وقد يقول قائل لا
علاقة للنور بالإدراك، فأقول له: أنا تحدثت عن اختلاف درجات النور
نفسه، ثم تحدثت عن اختلاف الإدراك لذلك. فهو نور على نور،
يختلف من طبقة إلى أخرى.

والثاني: يبين تجليته، فالنور كما عرفته سابقاً: (إظهار الشيء
الذي كان في ظلمة)، فنور المصباح يظهر الأشياء التي كانت في
ظلمة فيجليها، فعندئذ كل شيء يبدو على حقيقته، تبدو أشكالها
وألوانها وخصائصها. فلو كان عندك غرفة فيها سبائك حديد
ونحاس وذهب، وفيها أدوات معدنية، وفيها ماء، وفيها قفص زجاجي،
وفيها زهور زينة ذات ألوان مختلفة، فما الذي يحدث حين يأتي نور

المصباح؟ الذي يحدث أن الأشياء تبدو لك، كل شيء يبدو بذاته وشكله الموجود عليه، ويلونه، وصفاته. فهذا مثل نور الله، فالله نور السماوات والأرض وفيهما أشياء مخلوقة، وقد خلق الله كل شيء فسواه، وأعطاه خصائصه وشكله ولونه وميزاته ووظيفته... الخ، فالنور أظهرها بعد أن كانت في ظلمة، وبذلك النور كان ظهورها فبدت صفاتها وألوانها، وبه تؤدي وظائفها. (وهذا التجلي بينت آيات سورة النور، كما شرحت آنفا).



المطلب الثالث: سياق الآيات:

جاء مقطع سورة النور مبتدئاً بقوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من آية ٣٤ إلى آية ٤٦ (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦))، فبدأ بالحديث عن الآيات المبيّنات وضرب المثل، ثم ضرب المثل، ثم ختم بالحديث عن إنزال الآيات المبيّنات. فهذه الآيات كلها تتحدث عن تنوير السماوات والأرض.

عرض عام للسياق:

بدأ الحديث بتقرير الآية (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، ثم ضرب مثل نوره الذي يتحدث عنه، فضرب مثل المشكاة، وقد تبين لنا دلالة هذا المثل (نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ). ثم تحدث عن البيوت التي أذن الله أن ترفع، وعن الرجال الذين لا تلهيهم تجارة عن ذكره، ثم تحدث عن أعمال الكافرين كسراب بقيعة، ثم تحدث عن شبهها بظلمات في بحر لحي بعضها فوق بعض، وختم الآية بقوله: (وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ). ثم جاء الخطاب: (أَلَمْ تَرَ)، فتحدث عن تسبيح من في السماوات والأرض، وصلاتهم، والطير صافات، ثم مرة أخرى (أَلَمْ تَرَ)، فتحدث عن تأليف السحب ومراكمتها، وخروج الودق، ونزول البرد، وسنا البرق، ثم تحدث عن تقليب الليل والنهار، ثم تحدث عن حركة الدواب: على بطنه أو على رجلين أو على أربع. ثم ختم المقطع بقوله (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وهو ما بدأ به، والحديث عن الهداية هو ما بدأ به في آية ٣٥.

نور الهداية في سورة النور:

قررت الآيات أولاً أن الله نور السماوات والأرض، وضرب مثل نوره. وهذا نور الهداية الذي أظهر به الخلق، وهداهم إلى ما خلق لهم. ثم قال: (يهدي الله لنوره من يشاء)، وهذا نور الغاية، الذي وعد المؤمنين بأن يخرجهم من الظلمات إلى النور. فسياق الآية يبين أن الله جعل النور الأول نور هداية يهدي به، والنور الثاني نور غاية يهدي له. فمن اهتدى بنور الهداية بلغ نور الغاية. (وقد تقدم بيان هذا).

وقد بينت سابقاً أن نور الهداية في الدنيا له مظهران: نور هداية تدبيري، ونور هداية ابتلائي. وأن النورين معا نور جعله الله هداية، فيهتدي به الناس إلى نور الغاية. ولذلك قال (يهدي الله لنوره من يشاء)، أي من اهتدى بنور الهداية.

وقد تحدثت آيات النور عن النورين: النور التدبيري والنور الابتلائي.

النور الابتلائي:

فأما النور الابتلائي فقولته: (فِي بُيُوتٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّنْ

فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ).

قوله: في بيوت، أي أن نور هدايته الابلتائي يتحقق في بيوت أذن الله برفعها، أي: إعلائها على عامة البيوت التي بينها البشر، وأذن الله بذكر اسمه فيها، وبالتسبيح له فيها. وفي هذا إشارة إلى أن ذكر الله وتسبيحه هو مقتضى النور الهدائي، فالكائنات تسبح بنور الله، وهو نور تدبيري. كما أنه مقتضى النور الغائي، فالمؤمنون في الجنة كما في الحديث الصحيح (يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس).

وبيوت الله في الأرض هي منارات يهتدى بها، والأرض مليئة بالظلمات، والإنسان كذلك في ظلمات، فرفع البيوت إشارة بينة إلى أن الناس في هذه الظلمات يحتاجون إلى منارات مرفوعة تهديهم السير في الظلمات. ولذلك قال (أذن الله أن ترفع)، فكما تمتلئ هذه البيوت بنور الله، فكذلك ترتفع على عامة البيوت.

وقوله: (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال)، فهو يتحدث عن أمرين أساسيين، الأول: رفع هذه البيوت رفعا فوق عامة البيوت، والثاني ما يحدث داخل هذه البيوت من ذكر وتسبيح، ومن هذا المكان المرفوع ينادى للصلاة،

والأذان هو ذكر لله، ولذلك يبدأ المؤذن بتكبير الله ويختمه بذلك، فالله هو أكبر، وبيوت الله هي أرفع. وبذلك تمثل هذه البيوت مراكز لنور الله في الأرض. قال تعالى: (وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)، فالخطاب لنساء النبي، وقد شرفت بيوتهن بما يحدث فيها من تلاوة آيات الله والحكمة. فالبيت ليس مجرد بناء مرفوع، ولكنه بمضمونه أيضا، وقد جمعت آية النور بين الأمرين.

والحديث هنا في آيات النور عن بيوت الله، له صلة بنور الله الذي جعله لهداية الكائنات ولهداية الناس، ولعل لارتفاعها صلة ببث نور الله في الأرض، وكشف حجب الظلمات عنها، وعن النفس الإنسانية، وهذا يحتاج إلى مزيد بحث للكشف عن علاقة ارتفاع بيوت الله بنوره في الأرض، وأثره في الأرض، وفي النفس الإنسانية.

وأما حديث (ما أمرت بتشديد المساجد)، فالتشديد هنا ليس الرفع كما فسره بعضهم، بل هو كما فسره ابن عباس: (لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى)، فرخرفتها بتزيينها والمبالغة في ذلك، وذلك يشغل المصلي عن التفرغ التام لذكر الله وتسبيحه، كما يشمل المبالغة في بنيانها، والمباهاة بذلك، وبيوت الله لم توضع لهذا، بل لذكر الله وتسبيحه. أما بناؤها بناء واسعا، مرفوعا، فغير داخل في مفهوم التشديد. قال الشوكاني: (التزيين ليس من أمور رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه نوع من المباهاة المحرمة، وأنه من علامات الساعة، كما روي عن علي - عليه السلام -، وأنه من صنع اليهود والنصارى، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يحب مخالفتهم ويرشد إليها عموما وخصوصا).

ثم بين سبحانه أن من يهتدون بنوره هم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكره... وأنه سيجزيهم أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، وهذا رزقه وفضله.

أما الذين كفروا الذين لم يهتدوا بنوره في الدنيا (ومن ثم فلن يهتدوا إلى نوره في الآخرة)، فأعمالهم كسراب، فهي وهم ليس فيها شيء، إذ هي أعمال ناشئة عن ساكني الظلمات، ولا تقبل أعمالهم إلا إذا اهتدت بنور ربها، وبين هذا المثل في الآية التالية (أو كظلمات)، فأعمالهم كظلمات بعضها فوق بعض، وهي ظلمات شديدة، فكيف يهتدون لفعل الصواب وهم في الظلمات؟! إن كل الخلائق تهتدي بنور الله حتى يمكنها أن تقوم بأعمالها، فالذرة والمجرة وما بينهما، كل شيء يهتدي بنور ربه، فيمكنه العمل، وهؤلاء لا يهتدون بنوره فمن ثم أعمالهم متخبطة، وهم في ضلال بعيد. ولذلك عقب بقوله (ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور)، فكيف يعمل كائن بدون نور الله؟! الإنسان نفسه، أجهزته وخلاياه كلها تعمل مهتدية بنور الله التدبيري، ولولاه لما عملت شيئا. وكذلك الإنسان ينبغي أن يعمل مهتديا بنوره الابتلائي؛ إذ هو في ظلمات بعضها فوق بعض.

ولو تأملت فإن الآيات تركز في مثل العمل، فالرجال الذين لا تلهيهم تجارة... عملهم اهتدى بنور ربهم، ولذلك قال (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)؛ فأعمالهم مهتدية بنور ربها. أما الكافرون فأعمالهم كسراب؛ إذ هي غير مهتدية بنور الله.

وسأضرب مثلا، هب أن لديك مختبرين، وكل مختبر مزود

بكافة التجهيزات والأجهزة والمواد اللازمة لعمله. وفي كل مختبر وضعت رجلا ليعمل فيه، فأما رجل منهما فقد أثار المختبر، وقام بعمله في النور، وأما الآخر فلم ينر المختبر، وحاول أن يعمل في الظلام. سأترك لك تقدير نتيجة عمل كل منهما.

تحقق (نور على نور) في النور الابلتائي:

وقوله (نور على نور)، يتحقق في النور الابلتائي كما يتحقق في النور التدبيرى، وسأوضح هنا تحققه في النور الابلتائي، فالله أنزل نوره ليهتدي به الناس، وهذا النور يتفاوت من ناحيتين:

الناحية الأولى، من حيث النور نفسه، فبالرغم من أنه كله نور الله، ونور الله هو الإسلام (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ). ولكنه تعالى جعل لكل نبي شرعة ومنهاجا، بما يتناسب مع طبيعة الزمن الذي هو فيه، وطبيعة الرسالة: مؤقتة أو دائمة، وطبيعة الناس الذي بعث فيهم.

ولذلك فحيث تحدث عن الكتب المنزلة ذكر أنه جعل فيها: هدى ونورا، سواء التوراة أو الإنجيل، أما حين تحدث عن القرآن فإنه بين أنه أنزله نورا، وجعله نورا، وتكفل بإظهاره إظهارا كاملا، قال تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ). وقد حقق ما وعد، فقال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا). فختم برسوله الرسالات، وكتبابه الكتب، وجعله للناس كافة. ولم يصف أحدا من

خلقه بأنه منير إلا محمدا صلى اله عليه وسلم، وهو الرسول الخاتم:
(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا).

وتأمل الآيات: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ
اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ
الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا (٤٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥)
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا).

فهو يتحدث عن نبيه أنه خاتم النبيين، ثم تحدث عن أنه يصلي
على المؤمنين ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم تحدث عن النبي
الذي جعله سراجا منيرا، فهو يخرج الناس من الظلمات إلى النور
بكتاب ربهم، وهو نوره الذي أنزله.

الناحية الثانية: من حيث اهتداء المؤمنين بهذا النور، فهم
درجات، كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ). فذلك نور على نور، فنور رسول
الله صلى الله عليه وسلم لا يعدله نور أحد من أمته، ولا الأمة كلها.
ونور أصحابه أهدى من نور أتباعهم، (أصحابي كالنجوم بأيهم
اقتديتم اهتديتم). وهكذا يتفاوت المؤمنون في الاهتداء بهذا النور.

وهذا التفاوت سيكون له أثره في النور الذي يتمه الله لهم، فلكل منهم تنمة بقدر ما اقتبس منه لأول مرة، وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني: (فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يعطى نورا مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نورا أصغر من ذلك، حتى يكون رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفئ مرة، فإذا أضاء قدمه فمشى، وإذا طفىء قام).

النور التدبيري:

وأما النور التدبيري فجاء في بقية الآيات: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

هذا النور يجلي المخلوقات، فتبدو على طبائعها وخصائصها وألوانها المتباينة. فالماء مخلوق، والطير مخلوق، والدواب مخلوقة،

والليل والنهار مخلوقان، والبرق مخلوق... وكلُّ من الخلق له نصيبه وقدره من ذلك النور، فتختلف المخلوقات (في السماوات والأرض) في ظهورها، والنور إظهار لها، فإظهار الماء بخصائص مختلفة عن إظهار الدواب، عن إظهار الطيور، عن إظهار الليل والنهار...

قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)، فهو خلق كل شيء فسواه لما خلق له، ولكنه يظل في ظلمة حتى يجليه نور الله لوقته، ويكون له قدر مقدور من النور، فحين يلقي الله عليه نوره، يهتدي لما سوَّى له. فتهتدي الدواب به فتحيا، وتهتدي الطير به فتطير في الهواء، وتهتدي السمك به فتغوص في الماء، وتهتدي السحب به فتتألف وتتراكم، ويهتدي الماء به فينزل قطرا أو بردا، ويهتدي البرق به فيضيء، ويهتدي الليل والنهار به فيتقلبان، وتهتدي الشمس إلى الضياء، بل تهتدي كل ذرة، وكل خلية، لما سويت له. وكل الكائنات تسبح لربها وتصلي له، أن أثارها (فأظهرها بعد أن كانت في ظلمة)...

وتأمل قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)، فهو يخاطب الإنسان أن يرى تنوير السماوات والأرض، ألم تر كيف يتحقق ذلك النور، فكل من في السماوات والأرض يسبحون ويصلون لربهم، والطير صافات بنوره. ثم تحدث عن إزجاء السحب، وتراكمها، فلولا نور الله لما أزعجت ولما تراكمت، ولما أمطرت أو أبردت، ولما أرعدت أو أبرقت. وكذلك الليل والنهار فبنوره يتقلبان

ويختلفان.

وتأمل قوله: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فهذه تجسد قوله (نور على نور)، فحركة الدواب لولا نور الله لما كانت، وهذه الحركة تتفاوت من دابة إلى أخرى، فدواب زاحفة على بطنها، ودواب تمشي على رجلين، ودواب تمشي على أربع. فكل دابة منحها الله في حركتها طبقة من النور يختلف عما منح الأخرى.

وكذلك الإنسان يتفاوت النور فيهم، وعلى تفاوته تكون حياتهم، وإمكاناتهم، تكون الصحة والمرض، يكون الجد والتعب، يكون الأمل والتشاؤم، تكون السعادة والحزن... الخ. بل يتفاوت ذلك في الشخص نفسه، فيوماً مريضاً ويوماً صحيحاً، وطوراً ضعيفاً وطوراً قوياً (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)، فهو تحقيق لقوله (نور على نور). وتأمل أن الآية عقبته بقوله (يخلق الله ما يشاء)، وعقبها بالقدرة أيضاً، وهو التعقيب نفسه الذي عقبته به آية المشي (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)، فخلق الله لما شاء يتجلى في (نور على نور)، نور الإنسان في صباه ذو خصائص تختلف عنه في شبابه، وتختلف عنه في هرمه (يخلق الله ما يشاء). وفي هذه الآية عقب بأمريين هما العلم والقدرة (وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)، وهما الوصفان الواردان في آيات النور، فأية النور عقبها بقوله (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، وختمه بأية المشي بالقدرة (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، فبعلمه

وقدرته نور السماوات والأرض، وجعله (نورا على نور)، ولو جعله نورا فقط لتساوى الخلق كلهم في خصائصهم وطبائعهم.

وهذا يفسر قوله أيضا: (وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)، فكل له من النور درجة تختلف عن الدرجة التي لغيره، وبها يكون التفاوت بين أجناس الخلائق، وأنواع الجنس الواحد، وأفراد النوع الواحد، وحالات الفرد الواحد.



اللهم اجعل لي نورا:

ودعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي رواه عنه ابن عباس، وأخرجه الشيخان: (اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا، ومن أمامي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل لي في نفسي نورا، وأعظم لي نورا) وهناك زيادات فيهما: (واجعل في عصبى نورا، وفي لحمي نورا، وفي دمي نورا، وفي شعري نورا، وفي بشري نورا)، وفي رواية: (وزدني نورا، وزدني نورا، وزدني نورا).

فسر البيضاوي طلب النور للأعضاء بنور الطاعة، قال البيضاوي في تحفة الأبرار: (النور: ما يتبين به الشيء ويظهر، ومعنى طلب النور للأعضاء: أن تتحلى بأنوار المعرفة والطاعة، وتحرى عن الظلم الجهالة والمعاصي. وللجهات الست طلب الهداية للنهج القويم والصراط المستقيم، وأن يكون جميع ما تصدى وتعرض له سببا لمزيد علمه وظهور أمره، وأن يحيط به يوم القيامة، فيسعى خلال النور. ثم

لما دعا أن يجعل لكل عضو من أعضائه نورا يهتدي به إلى كماله، وأن يحيط به من جميع الجوانب، فلا يخفى عليه شيء، ولا ينسد عليه طريق دعا أن يجعل له نورا به يستضيء الناس، ويهتدون إلى سبيل معاشهم ومعادهم في الدنيا والآخرة).

أما الشوكاني في قطر الولي على حديث الولي، ففسره بأنه نور يمد الله به الأعضاء فتصبح علوية، ويصبح إدراكها مستضيئا بنور الله: (وأي مانع من أي يمد الله سبحانه عبده من نوره فيصير صافيا من كدورات الحيوانية الإنسانية لاحقا بالعالم العلوي سامعا بنور الله مبصرا بنور الله باطشا بنور الله ماشيا بنور الله)، وجعل هذا تفسيرا لحديث الولي: (فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)، قال الشوكاني: (فمعنى الحديث كنت سمعه بنوري الذي أقذف فيه فيسمع سماعا لا كما يسمعه أمثاله من بني آدم، وكذلك بقية الجوارح... فمن أمد الله سبحانه بنوره في جميع بدنه صار لاحقا بالعالم العلوي ومن أمد عضوا منه بنوره صار ذلك العضو نورانيا. فإن كان من الحواس كان لها من الإدراك ما لم يكن لغيرها من الحواس التي لم تمد بنور الله عز وجل. وإن كان الإمداد لعضو من الأعضاء غير الحواس صار ذلك العضو قويا في عمله الذي يعمل به مستنيرا إذا عمل به الإنسان كان عمله صالحا موافقا لما هو الصواب. فاتضح لك بهذا معنى ما في هذا الحديث القدسي أي كنت بما ألقيت على سمعه وبصره ويده ورجله من نوري، سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله

التي يمشي بها).



فالبعض يَجْعَلُهُ مِنَ (النور الابتلائي) أما الشوكاني فيجعله نورا تدبيرياً. وهو أولى وأقرب كما يبدو، فالرسول صلى الله عليه وسلم يسأل ربه زيادة في النور (التدبيرى)، وهو النور الذي يمد الله به كل إنسان وكل عضو بشري، سواء مؤمناً كان أم غيره. ومن ثم فالرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من ربه أن يعطيه (نوراً على نور) لأعضائه، أي: يعطيه أتم نور تدبيرى يمكن أن يُعطاه بشر.

فالقوة في اليد تتفاوت بتفاوت ما فيها من نور الله (التدبيرى)، والقوة في السمع، وكذلك القوة في البصر، وقوة الإدراك... إلخ. والجسم الصحيح نوره أتم من الجسم المريض، والعضو السليم نوره أتم من العضو المشلول... وهكذا، فالنور يتفاوت في الأعضاء. وقد أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال النور البشري، فكان أقوى الناس، وأصحهم، وأشدهم سمعاً وإدراكاً، وأقواهم بصراً، وأفصحهم لساناً، وأحدهم فطنة، وأسرعهم بديهة، وأشجعهم قلباً، وأثبتهم قدماً، وأكثرهم صبراً، وأشدهم نشاطاً وهمة، وأنقاهم نفساً، فنور الله في قلبه أتم نور، وفي لسانه أتم نور، وفي سمعه أتم نور...

ومن الآثار: قول الإمام علي كرم الله وجهه: (كنا إذا حمى الوطيس اتقيناً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه)، وقال أنس رضي الله عنه كما في البخاري: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع

أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر، وهو على فرس لأبي طلحة عري، وفي عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»، ومن ذلك قصة صرعه لركانة، كما في السير. وهناك آثار كثيرة تدل على قوته في الطاعة والتحمل والصبر والجلد ... إلخ.

وحتى قوته على الجماع، كما قال أنس، والحديث في البخاري: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يدور على نسائه في الساعة الواحدة، من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة» قال الراوي: قلت لأنس أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث «أنه أعطي قوة ثلاثين». قال ابن حجر في فتح الباري: (ومن حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: "أعطيت قوة أربعين في البطش والجماع"، وعند أحمد والنسائي وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه "إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والجماع والشهوة"، فعلى هذا يكون حساب قوة نبينا أربعة آلاف).

وروى أنس: "أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يطوف على نسائه بغسل واحد"، قال ابن حجر: "وهو دليل على كمال البنية وصحة الذكورية".

والأدلة في هذا الباب كثيرة، وكلها تبين كمال قوة البدن والنفس التي يعطاها النبيون، وأكمل تلك القوة اجتمعت في رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. فالله أعطاه نورا على نور، فأكمل النور وأتمه قد آتاه الله إياه. ولذلك فالنبيون مؤهلون لتلقي الوحي

من السماء، وما ذلك إلا لكمال النور الذي آتاهم الله، فجعله في أبدانهم ونفوسهم.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعين بربه من الجبن والبخل والمرض والهزم والعجز والكسل، ويسأله العافية في بدنه وسمعه وبصره وقوته، وأن يجعل ذلك الوارث منه...

وفي هذا السياق نفهم قوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ)، فالله يعطي المؤمن الصابر من النور لأعضاء بدنه ولنفسه عشرة أضعاف ما يكون لدى الكافر، وربما أكثر. فهو تحقيق تام لقوله (نور على نور). اللهم اهدنا لنورك.

فالإنسان يسأل ربه أن يتم له نور أعضائه ونفسه، وأن يزيده من نوره، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك.

فاللهم اجعل في قلبي نورا، وفي لساني نورا، وفي بصري نورا، وفي سمعي نورا، وعن يميني نورا، وعن يساري نورا، ومن فوقني نورا، ومن تحتي نورا، ومن أمامي نورا، ومن خلفي نورا، واجعل لي في نفسي نورا، واجعل في عصبني نورا، وفي لحمي نورا، وفي دمي نورا، وفي شعري نورا، وفي بشري نورا، وزدني نورا، وزدني نورا، وزدني نورا.



المبحث الرابع: أفعال الإظهار والإخفاء

سأتناول في هذا المبحث مجموعة من الأفعال المسندة إلى الله سبحانه وتعالى، الدالة على الإظهار والإخفاء. وهي: جلى، وفلق، وأبدى، وشهد، وبرأ، وأطلع، وأظهر، وأخرج، وأخفى، وأقبر، وأعاد في.

وأما (نور) فقد تناولته في المباحث السابقة، وبينت أن قوله: (نور السماوات والأرض)، أي: منورهما، فهو فعل الإظهار الأول، وحوله تدور عامة أفعال الإظهار. ولم يسند فعل الإضاءة إليه، سبحانه وتعالى. وقد بينت هذا سابقاً، وبينت الفرق بين الإضاءة والنور. فيرجع إليه.



جلى وتجلي

الدلالة اللغوية:

قال في مقاييس اللغة: (الجيم واللام والحرف المعتل أصل واحد، وقياس مطرد، وهو انكشاف الشيء وبروزه. ويقال تجلى الشيء، إذا انكشف. ويقولون: هو ابن جلاً، إذا كان لا يخفى أمره لشهرته). وقال الراغب في المفردات: (أصل الجلو: الكشف الظاهر. يقال: أَجَلَيْتُ القوم عن منازلهم فَجَلَوُا عنها. أي: أبرزتهم عنها).

وفي المصباح المنير: (وجلاً الخبرُ للناس جلاء: وضح وانكشف، فهو جليّ).

استخدام القرآن الكريم:

من أفعال الإظهار: التجلية، وقد جاء في القرآن الكريم فعل: (جلى يجلى) مسنداً إلى الله في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

وجاء فعل (تجلى ل) مسنداً إلى الله في قوله تعالى: (وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ).

وكذلك جاء الفعلان: (جَلَّى)، و(تَجَلَّى) مسندين إلى النهار، في قوله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)، وقوله: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا).

وجاء المصدر (جلاء)، في قوله: (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ).

واللفظ في هذه المواضع كلها بمعنى: الظهور والانكشاف، فالشيء يظهر بعد أن كان غير ظاهر (خفياً).

ودلالة هذا اللفظ تفيد أربعة أمور:

الأول: أن الشيء المتجلي (أو المجلَّى) موجود سابقاً.

الثاني: أن الشيء كان غير ظاهر.

الثالث: أن الشيء أصبح ظاهراً بارزاً مشهوداً.

الرابع: أن ظهور الشيء يكون بالنور. فالنور هو الذي يظهر الأشياء.

وعليه فقوله تعالى: (وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى)، أي: أن النهار كان غير ظاهر، ثم برز وانكشف،

وقوله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)، فهو يقسم بالشمس وضحاها. (وقد بينت في بحثي عن الضحى أن مفهوم الضحى: الضياء المنبعث بعد ظلمة). وقوله (والنهار إذا جلاها)، أي: إذا كشف الشمس وأبرزها. فالشمس كانت موجودة، وحين يغشاها الليل فإنها موجودة، ولكن ليل الأرض

يغشاها فتختفي عنهم، ثم يأتي النهار فيكشفها ويجليها لهم.

وبذلك فالنهار نفسه يتجلى، أي: يظهر ويبرز. فهو يجلي

الشمس، وهو يتجلى بنفسه.

وسأتناول في هذا المطلب قوله: (لا يجليها لوقيتها إلا هو)، وقوله

(فلما تجلى ربه للجبل).



لا يجليها لوقتها إلا هو:

خلاصة ما قلته سابقاً، أن كل شيء قد خلقه الله، خلقه بأمره، فكان في كتاب مبين، فالخلق كله في هذا الكتاب، ويظل الخلق في ظلمة، وحين يأذن الله بتجلية شيء من هذا الخلق فإنه يجليه بنوره، فيتجلى بخروجه من تلك الظلمة إلى النور (التدبيرى)، ويستمر تجليه حتى أجل مسمى، فالله قدر الأجل الذي يبدأ فيه تجلي المخلوق، والأجل الذي ينتهي إليه.

قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَأَ جُجْلِيهَا لَوْقَتِهَا إِنَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)، فقله (يجليها)، أي يظهرها، وهذا يدل على وجودها من قبل، فالله قد خلقها ولكنها لا زالت في ظلمة، وحين يأذن الله يلقي عليها نوره فيجليها لوقتها.

فالله خلق خلقه كله في ظلمة، خلق السماوات والأرض، وخلق الساعة، وحين أذن الله بتجلي السماوات والأرض نورها، فجلاها لوقتها، وبقيت الساعة في ظلمة، حتى يأذن الله فيجليها لوقتها. وقله: (لا تأتيكم إلا بغتة)، فهي موجودة، وستأتي بغتة، حين يجليها الله لوقتها.

أما قوله (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فقد اختلف المفسرون في دلالة قوله (ثقلت)، فلماذا ثقلت؟

قال صاحب زاد المسير: (فيه أربعة أقوال: أحدها: ثقل وقوعها على أهل السماوات والأرض، قاله ابن عباس، ووجهه أن الكل

يخافونها، محسنهم ومسيئهم. والثاني: عظم شأنها في السماوات والأرض، قاله عكرمة، ومجاهد، وابن جريج. والثالث: خفي أمرها، فلم يعلم متى كونها، قاله السدي. والرابع: أن «في» بمعنى «على» فالمعنى: ثقلت على السماوات والأرض). وقال البغوي في شرح السنة: (أي: خفيت، وإذا خفي عليك الشيء، فقد ثقل)، أي: فهي مخفية لم يجلها الله بعد، وحين يجليها لوقتها ستظهر.

ونقل الطبري عن ابن جريج: (إذا جاءت انشقت السماء، وانتشرت النجوم، وكوّرت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله؛ فذلك ثقلها).

والذي يستبين لي في دلالتها أن (ثقلت) على حقيقتها، فالشيء الثقيل ينوء بحمله ما تحته، فالسماوات الشداد تنوء بحمل الساعة لثقلها، فإذا جاء وقتها فإن السماوات لا تعود تتحمل ذلك الثقل فتتفطر وتنشق لشدة ثقل الساعة عليها. وهذا يفسر قوله تعالى: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنَ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) [سورة الشورى]، فالسماوات الآن تحمل الساعة، وقد ثقلت فيهن، فالسماوات تكاد يتفطرن من فوقهن لشدة ما تحمل من ثقل، وسوف تنفطر السماء حين يأتي الأجل: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ)، حين يجلي الله الساعة لوقتها، ستنفطر السماء، وتنتثر الكواكب، وتتفجر البحار، وتتبعثر القبور، قال تعالى: (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ).

وقوله (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ) قال المفسرون يتفطرن من عظمة الله، وقيل من ادعاء البشر أن الله اتخذ ولداً، والذي أراه أن تفطرن من ثقل الساعة، كما بينت.



وقد تحدثت في (بحث أفعال الخلق في القرآن)، عن دلالة (برأ)، وهي: (إظهار لشيء مخلوق لم يكن ظاهراً)، فالشيء مخلوق من قبل، والبرء هو إظهاره، فهو يظهر بنور الله.

وتخيُّل وجود المستقبل يصعب إدراكه على الإنسان؛ نتيجة لارتباط إدراكه بالزمن، وتقسيمه إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل، ومن ثم تخيل أن الزمن يتدفق من الماضي إلى المستقبل. إلا أن الزمن يؤطر إدراك الإنسان، أما الخالق العليم فهو الذي خلق الزمان، وخلق المكان، وخلق كل شيء.



تجلى ربه للجبل:

قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ).

سأعنى هنا بتفسير قوله: (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا).

قال الماوردي: (معنى تجلى ظهر، مأخوذ من جلاء العروس إذا ظهرت، ومن جلاء المرأة إذا أضاءت. وفي تجليه أربعة أقاويل: أحدها: أنه ظهر بآياته التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل. والثاني: أنه أظهر للجبل من ملكوته ما تدكدك به ، لأن الدنيا لا تقوم لما يبرز من ملكوت السماء. والثالث: أنه أبرز قدر الخنصر من العرش. والرابع: ظهر أمره للجبل).

بينت في بحث (الغيب والشهادة) أن الله غيب، محجوب عن خلقه بحجب من النور، كما في صحيح مسلم مرفوعاً: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، فالله غيب محجوب عن خلقه بالنور، وسيجلى الله للمؤمنين الذين يخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ)، فقوله (بالغيب) متعلق بالمفعول (ربهم)، أي: يخشون ربهم حالة كونه بالغيب، فالله بالغيب، وهم يخشونه ويؤمنون به ولم يشهدوه. وهذا هو الأرجح كما يظهر لي، ومثله قوله: (وَخَشِيَ

الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)، وقوله: (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)، وقوله: (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)، وقوله: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ)، أي: ينصره وهو سبحانه بالغيب.

وتجلي الشيء كما بينت، هو ظهوره بعد خفائه، والله سبحانه وتعالى هو الظاهر والباطن، فهو الظاهر في غاية الظهور، ولكن لا تدركه الأبصار، ولا يدركه شيء من خلقه؛ لأنه الباطن، فالباطن غيب، وهو المحتجب عن الأبصار، فليس دونه شيء في الاحتجاب، فهو الباطن بذاته الذي يحتجب عن خلقه فلا يظهر لهم.

والله سبحانه وتعالى، يبين في آية الأعراف، أنه تجلى للجبل، أي أصبح بالنسبة إلى الجبل من عالم الشهادة، فالله غيب، وسيراه المؤمنون في الجنة، فيكون مشهوداً لهم، أما في الدنيا فإن أنظمة الخلق لا تدرك الخالق، ولا تستطيع أن تتحمل تجليه. وهذا مثل ذلك، فالله حين تجلى للجبل اندك الجبل، ولو تجلى الله لخلق ف الدنيا لاندك الخلق كلهم، ولو تجلى للسموات لاندكت، ولو تجلى للأرض لاندكت. سبحانه وتعالى.

وحين يأذن الله سبحانه وتعالى بقيام الساعة، فإن المخلوقات القائمة تتبعثر وتندك وترجع هباء مبعوثاً؛ إذ يتجلى ربها لها، قال تعالى: (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا).

فالسماوات والأرض بنظامها الحالي لا تتحمل تجلي ربها،

والناس وكل الخلق كذلك، وسيبدل الله أنظمة الدنيا كلها، فكل شيء يتغير، ويندك، فينشئ الله نظاما آخر، وينشئ الناس نشأة أخرى، فيكون الخلق مؤهلا لتجلي الله له.

قال تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)، فكل شيء يتبدل، وقوله (وبرزوا)، أي: برز الناس وبرزت السماوات والأرض وبرزت الخلائق كلها، لله الواحد الذي قهر كل شيء، وظهر عليه. فبروز الخلق لله إنما يكون بعد نشأتها نشأة أخرى.

ونلاحظ أن لفظ (الدك) للأرض والجبال ثم يأت إلا في سياق الحديث عن مجيء الرب، سواء في الدنيا، كما في قصة موسى (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)، أو في الآخرة، في قوله (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)، وقوله: (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ).



فلق

وصف الله نفسه بأنه (فالق الإصباح)، و(فالق الحب والنوى)، وأنه (رب الفلق).

أولاً: في اللغة:

قال الجوهري: (فلقت الشيء فلقا: شققته).

وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: (الفاء واللام والقاف أصل صحيح يدل على فرجة وبينونة في الشيء، وعلى تعظيم شيء. من ذلك: فَلَقْتُ الشَّيْءَ أَفْلِقُهُ فَلَقًا. وَالْفَلَقُ: الصبح؛ لأن الظلام ينفلق عنه. وَالْفَلَقُ: مطمئن من الأرض كأنه انفلق، وجمعه فِلَقَانٌ. وَالْفَلَقُ: الخلق كله، كأنه شيء فلق عنه شيء حتى أبرز وأظهر).

وقال الراغب في المفردات: (الْفَلَقُ: شقَّ الشيء وإبانة بعضه عن بعض).

وقال العسكري مفرقا بين الفلق والشق: (الفلق على ما جاء في التفسير هو الشق على أمر كبير، ولهذا قَالَ تَعَالَى (فالق الإصباح)، ويُقال: فلق الحبة عن السنبله وفلق النواة عن الخلة، ولَا يَقُولُونَ فِي ذَلِكَ شَقًّا؛ لِأَنَّ فِي الْفَلَقِ الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ، وَمَنْ ثُمَّ سَمِيَتِ الداهية: فُلَاقًا وَفَلِيقَةً).



ثانياً: مع المفسرين:

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ).

قال الطبري: (الذي فلق الحب، يعني: شق الحب من كل ما
ينبت من النبات، فأخرج منه الزرع "والنوى"، من كل ما يغرس مما
له نواة، فأخرج منه الشجر).

وقال الماوردي: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنُّوَى} فيه ثلاثة أقاويل: أحدها:
يعني فالق الحبة عن السنبله والنواة عن النخلة، والثاني: أن الفلق
الشق الذي فيهما، والثالث: أنه خالق الحب والنوى. وذكر بعض
أصحاب الغوامض قولاً رابعاً: أنه مظهر ما في حبة القلب من
الإخلاص، والرياء. {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ
الْحَيِّ} فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: يخرج السنبله الحية من الحبة
الميتة، والنخلة الحية من النواة الميتة، ويعني بإخراج الميت من الحي
أن يخرج الحبة الميتة من السنبله الحية، والنواة الميتة من النخلة
الحية. والثاني: أن يخرج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان.
والثالث: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وقد ذكرنا فيه
احتمالاً، أنه يخرج الفطن الجلد من البليد العاجز، ويخرج البليد
العاجز من الفطن الجلد. {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ} فيه أربعة أقاويل: أحدها:
فالق الإصباح، والثاني: أنه إضاءة الفجر، والثالث: أن معناه خالق نور
النهار، والرابع: أن الإصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر
بالليل).

وقال أبو السعود: (والفلق: الشق بإبانة، أي: شاقّ الحب بالنبات والنوى بالشجر، وقيل المراد به الشق الذي في الحبوب والنوى أي خالقهما كذلك، كما في قولك: ضيق فم الركبة ووسع أسفلها، وقيل الفلق بمعنى الخلق).



وقوله تعالى: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ).

قال ابن الجوزي: الفلق فيه ستة أقوال: الصبح، وقيل: الخلق كله "عن ابن عباس"، وقيل: سجن في جهنم، وثيل: شجرة ف جهنم، وقيل: كل ما انفلق عن شيء (كالصبح والحب)، وقيل: اسم من أسماء جهنم).

وقال الزجاج: (الفلق: الخلق، قال تعالى: {فالق الإصباح}، و{فالق الحب والنوى}، وكذلك فلق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن خلقه أكثره عن انفلاق. فالفلق جميع المخلوقات وفلق الصبح من ذلك).

وقال البيضاوي: ({الفلق} ما يُفلق عنه، أي: يُفَرَّق، كالفرق، فعَل بمعنى مفعول، وهو يعم جميع الممكنات، فإنه تعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل كالعيون والأمطار والنبات والأولاد، ويختص عرفاً بالصبح ولذلك فسر به. وتخصيصه لما فيه من تغيير الحال وتبدل وحشة الليل بسرور النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة، والإشعار بأن من قدر أن يزيل به ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ به ما يخافه).



ثالثاً: التحقيق في الدلالة:

الفلق: اسم مفعول، بمعنى: الشيء المفلوق. والفلق: شق الشيء المظلم وإخراج الشيء المفلوق منه، بالنور. والفالق هو من يفلق الفلق، فيخرجه من الظلمة إلى النور.

ولا يطلق لفظ (الفلق) على الشيء إلا إذا كان داخل شيء مظلم، وأخرج من الوعاء المظلم بالنور. فالفلق هو شيء كان في شيء مظلم، فالله يفلقه، أي: يشق ذلك الشيء المظلم، فيخرج الشيء من ظلماته إلى النور، فالله رب الفلق، أي: رب الشيء الذي فلقه فأخرجه من ظلمة شيء آخر. فالشيء الذي يُظهِرَ كان موجوداً، إلا أن وجوده في ظلمة، فحين يأتي النور ينكشف، ويُدرَك.

فرب الفلق: رب كل شيء فلقه، وأخرجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. فعالم الغيب (المحجوب بالظلمة) يخفي الأشياء، والله يفلقها حين يشاء بنور، فيجليها لوقتها، ولا يجلي إلا هو. وقد تحدثت عن هذا في بحث: الظلمات والنور. ومن فالاستعاذة برب الفلق من شر ما خلق.. جاء من ظلمات حقيقية، فشر الخلق، وشر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد... هذه كلها ظلمات، فأمرنا الله بأن نستعيذ منها برب الفلق (أي الذي يخرج الأشياء من ظلماتها).



وقوله (فالق الإصباح)، و(فالق الحب والنوى)، أي هو الذي يفلق الحب والنوى، فيخرج الكائن الحي الذي داخلهما، من ظلمات الحب

وظلمات التربة إلى النور، فيكون نباتا بإذن الله. وهو فائق الإصباح الذي يشق الظلام، فيخرج منه الإصباح، فيخرج هذا الإصباح من رحم الظلمات، وهو الذي يخرج الإنسان من الظلمات الثلاث في بطن أمه إلى النور، ... فهو رب الفلق، والفلق يشمل كل هذا وغيره، فالله نُور السماوات والأرض.



وقد جاءت الآية مبينة (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، فبين فلق الحب والنوى بأنه يخرج الحي من الميت. فأخرج الحي (الشيء المفلوق) من الميت (من ظلمة الأصل الذي كان فيه) هو الفلق.

وقد تنبه لهذا الزمخشري، فقال: (ومخرج الحي من الميت، ذكره بلفظ الاسم حملاً على فائق الحب، فإن قوله: يخرج الحي واقع موقع البيان له). وهو يقصد أن قوله (يخرج الحي من الميت) جاء مبيناً لقوله (فائق الحب والنوى)، أما قوله: (ومخرج الميت من الحي)، فقد جاء معطوفاً على فائق.

والأمر كما ذكره، فإن الآية تتحدث عن عمليتين متقابلتين:

الأولى: إخراج الحي من الميت، وهو المراد بقوله: (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ). فهو يخرج الأشياء من الظلمات إلى النور، فتكون حية بإذن الله. وهذه العملية هي عملية انتقال الشيء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فيصبح ظاهراً. والفلق يبين كيفية إخرجه من الظلمة إلى النور، فهو يخرج بفلق،

أي: شق للوعاء المظلم، وإخراج المفلوق منه، بالنور.

الثانية: إخراج الميت من الحي، وهو المراد بقوله: (وَمُخْرَجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)، فلفظ (ومخرج) عطف على فائق. إخراج الميت من الحي هو العملية المقابلة للعملية الأولى. وقد تعددت تفسيرات المفسرين قديما وحديثا في بيان المقصود بإخراج الميت من الحي.

والذي يبدو لي والله أعلم، أنها عملية مقابلة تماماً للعملية الأولى؛ فالعملية الأولى: إخراج الحي من الميت بخلق الظلمة التي كان فيها الشيء، فينتقل من عالم الغيب (المحجوب بالظلمة) إلى عالم الشهادة (حيث يجليه النور).

والعملية الثانية: إخراج الميت من الحي، برده إلى الظلمة التي كان فيها، فينتقل من عالم الشهادة (حيث كان منفلقاً متجلياً بالنور) إلى عالم الغيب (حيث تحجبه الظلمة من جديد).

وقد بينت أن الشيء في خلقه يمر بالمراحل التالية:

الأولى: خلق الله كل شيء فجعله في ظلمة. فهو في عالم الغيب.

الثانية: ثم يلقي الله نوره على ما شاء حين يشاء، فيجليه لوقته، وبذلك ينتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. وهذا هو الفلق، وهو إخراج الحي من الميت.

الثالثة: عودة الشيء إلى الظلمة، بعد أن يأتيه أجله المسمى، فلكل شيء أجل، فينتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب. وهذا هو

إخراج له من النور إلى الظلمات، ويسميه القرآن: إخراج الميت من الحي. فالشيء كان حيا في عالم الشهادة، ثم يصير ميتا في عالم الغيب.

الرابعة: وإذا مات الشيء فقد دخل في ظلمة القيامة، وتظل الأشياء كذلك حتى يفلقها الله مرة ثانية، فيظهرها إلى عالم الشهادة. ولا يجليها لوقتها إلا هو.



ونجد آيات الأنعام تتحدث عن العملية الأولى: أي إخراج الحي من الميت، وتقدير الآية:

انظروا إلى قدرة ريكم سبحانه وتعالى، فهو فائق الحب والنوى، بمعنى أنه الذي يخرج الحي من الميت، (وهو أيضاً الذي يخرج الميت من الحي، فهذه جملة اعتراضية لبيان العملية المقابلة)، ثم تعود الآيات فتسرد مظاهر إخراج الحي من الميت: ومن ذلك الاهتداء بالنجوم في الظلمات، وإنشاء الناس من نفس واحدة.

فالآيات تتحدث عن أن الله فائق الحب والنوى، وفائق الإصباح، والفلق هو شيء كان في شيء مظلم، وفلقه: شق الشيء المظلم وإخراج ذلك الشيء منه، فكما أن الشجرة الحية أخرجها الله من ظلمات الحب والنوى بعد أن استقرت فيها مدة من الزمن، إلى قدر معلوم، فكذلك النطفة، استقرت في ظلمات ثلاث، فهي مستقرها ومستودعها، إلى قدر معلوم، ثم يفلقها الله، فيخرجها إلى النور.

أبدى

قال في المفردات: (بَدَأَ الشَّيْءُ بُدْؤًا وَبَدَاءً أَي: ظَهَرَ ظَهْرًا بَيِّنًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}.)
وأبدا الشيء: أظهره.

وتخفي في نفسك ما الله مبديه:

وقد جاء لفظ (الإبداء) مسندا إلى الله تعالى في قوله: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا).

قال الواحدي في التفسير الوجيز: (وقوله: {وتخفي في نفسك ما الله مبديه} أن لو فارقها تزوجها، وذلك أن الله تعالى كان قضى ذلك وأعلمه أنها ستكون من أزواجه وأن زيدا يطلقها).

فقد فسر (الإبداء) بظاهره، وهو أن الله مظهر هذا الأمر، وإظهار الله لهذا الأمر هو قضاؤه به، فهو أمر قد كتبه الله وقدره، وقضى أن يكون من عالم الشهادة. فيتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مطلقة زيد بن حارثة (زينب بنت جحش).

فإظهار الله للشيء وإبداؤه له وشهادته به، أن يصبح من عالم الشهادة، فيظهره ظهورا بينا.

ولم يأت لفظ الإبداء إلا في هذا الموضع، مقترنا بما يخفيه
الإنسان في نفسه، ومن ثم فنفسر الإبداء كما جاء في الاستخدام.

فالإبداء هو إظهار الشيء الذي تخفيه النفوس.

ومعنى الآية: أتخفي يا محمد في نفسك أمراً، وهو كراهية
الزواج من زينب؛ خشية أن يقول الناس: تزوج زوجة (ابنه)، ولكن الله
قد قضى بإبطال التبني، وإبداء ما يخفيه الرسول في نفسه تجاه هذا
الأمر، أي إظهاره وتحقيقه في عالم الشهادة.

فالذي أخفاه الرسول صلى الله عليه وسلم: كراهية هذا الزواج.

والذي أبداه الله: ما كرهه رسوله صلى الله عليه وسلم من أمر
الزواج، فالله أبدى كراهية رسوله لهذا الأمر، ولذلك خاطبه
(وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)، ثم سأل عنه بقوله: (وَتَخَشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ).



وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون:

قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ
مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ
يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا
كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

قال الطبري: (وظهر لهم يومئذ من أمر الله وعذابه، الذي كان
أعدّه لهم، ما لم يكونوا قبل ذلك يحتسبون أنه أعدّه لهم). وقال أبو

السعود: (أي ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها).

وقال الزمخشري: (وعيد لهم لا كنه لفضاعته وشدته، وهو نظير قوله تعالى في الوعد فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمُ والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم).

والآية تبين أن الظالمين يوم القيامة سيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبونه. ثم قال: (وبدا لهم سيئات ما كسبوا)، أي: أن كسبهم الشيء في الدنيا سيرون نتيجته رأي العين، فيبدو لهم ظاهراً عياناً، ولا يعود خفياً عنهم، كما قال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

هذا الآية تبين أن الجزاء المعد للظالمين موجود، ولكنه في عالم الغيب، وسيأتي الوقت الذي يبدو فيه، فينتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. فلفظ البدو يعني ظهور الشيء الخفي.

ولذلك وصف جزاء المؤمنين بأنه مخفي: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمُ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). فهو جزاء قد أعدّه الله، ولكنه أخفي عن الخلق، أي هو في عالم الغيب، وحين يأذن الله يبدو للمؤمنين، كما يبدو للظالمين جزاء ما كسبوا.

قال تعالى عن أهل جهنم (بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ)، أي ما كانوا يخفونه من السيئات في الدنيا، فإنها ستبدو لهم، فيرونها رأي العين. وهو كقوله في سورة الجاثية: (وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ

مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

فبالخلاصة أن الجزاء قد أعده الله للناس، مؤمنهم وكافرهم،
ولكنه أخفي لهم في عالم الغيب، وسيبدو لهم يومئذ، أي يظهر،
فينتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.



شهد، برأ، أطلع، أظهر، هدى

هذه الأفعال كلها، قد درستها من قبل.

(شهد):

درستها في بحثي: (الغيب والشهادة) فيرجع إليه، وبينت أن شهادة الله بالشيء: إظهاره له، وإخراجه من الظلمات إلى النور.

وبينت أن الغيب: (شيء موجود، ولكنه مستور بحجب من الظلمات أو النور)، والشهادة: (شيء موجود، ظاهر، غير محجوب).
فعالم الغيب عالم موجود، فهو عالم قد خلقه الله، وقد أوجده. ولكنه يظل محجوباً، فهو خفي ومستتر؛ بسبب الحجب التي حُجِبَ بها.

وبينت أن القرآن الكريم يسمي أي طريق مُظهر للحق شهادة.

ومعاني (شهد) مردها كلها إلى الدلالة العامة للجذر، وهي: الظهور البين، فعالم الشهادة هو العالم الذي يظهر ويستبين بعد خفائه في الغيب، وشهادة الله بوحديته: إظهارها إظهاراً بيناً، وشهادة الناس في الحقوق هو إظهار الحق المخفي وتجليته... الخ.

فأكتفي بما درسته هناك.

(برأ):

بينت في بحث (أفعال الخلق في القرآن الكريم)، أن معنى: (برأ):
إظهار لشيء مخلوق لم يكن ظاهراً، فهو مرحلة لاحقة للمخلوق، كما

سأبين ذلك. ودلالة اللفظ في اللغة تحمل معنى: الإظهار بعد خفاء. والبارئ: هو الذي يظهر خلقه بعد أن كانوا مخفيين في عالم الغيب، فيخرجهم إلى عالم الشهادة.

(أطلع):

جاء في قوله تعالى: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَاِن تُوْمِنُوْا وَتَتَّقُوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ).

درست الآية في بحث: (الغيب والشهادة في القرآن)، وذكرت:

الله سبحانه وتعالى يطلع الرسل على ما شاء من الغيوب، سبحانه وتعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن كثير من أحداث (الماضي) و(المستقبل)، يصفها وهو يراها رأي العين، فالله جعل له قدرة خاصة تكشف حجب الظلمات، وحجب النور، فيرى الأحداث المستورة بتلك الحجب.

فإطلاع الله رسله على الغيب، هو إظهاره لهم، فيصبح بالنسبة إليهم مشهودا.

(أظهر):

جاء في خمس آيات، وهي قوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) فِي سورتى التوبة والصف، وقوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا). وقوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)، وقد تناولت الآية في بحث (الغيب والشهادة في القرآن). وقوله: (وَإِذْ أَسْرَرْنَا النَّبِيَّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ).

فالإظهار، هو إخراج الشيء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة،

وقوله: (ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، أي ليُظْهِرَ (دين الحق)، فالله هو من يُظْهِرُ، والدين هنا هو الشيء الذي يُظْهِرُ، فالدين (نور) باعتبار ما يُظْهِرُهُ من الحقائق، ونور الله يُظْهِرُ كُلَّ نَورٍ، فهو الذي جعل الظلمات والنور، وهو الذي يُظْهِرُ الْأَنْوَارَ كُلَّهَا.

وأظهار الإسلام على الدين كله، هو شهادة الله به، وإبانة حججه ودلائله، وإظهارها ظهوراً بيناً، وإعلاء الدين في الأرض، ليصبح مشهوداً لدى الناس جميعاً، ويتحقق مبدأ: (لا إكراه في الدين).

والدين هو نور الله، الذي قضى الله أن يتمه، (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)، فأظهار الدين هو إتمام هذا النور، وإخراجه كله للناس جميعاً. وهو ما تم فعلاً، فلم يمت الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أتم الله نوره،

وأكمل دينه، ولم يعد شيء منها غير مُظهِر، قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).
فإن الله قد أظهر الدين وأتم نوره.

والله هو الظاهر، الذي يظهر ظهوراً بيناً، فليس فوقه شيء في الظهور، ويُظهر الأشياء، فهو الشهيد على كل شيء.

(هدى):

الهداية هو تحقق أثر النور، وقد عرفت النور أنه: (إظهار الشيء الذي كان في ظلمة؛ فيُهدى به).

وذكرت في هذا المبحث سابقاً أن الاهتداء هو اللفظ القرآني المستخدم مع النور، فالخلق والتسوية تمت، ثم بالنور اهتدى كل مخلوق لما خلق له، (الله نور السماوات والأرض)، أي منورهما ومنور من فيهما، ومنور كل شيء، فاهتدى كل شيء إلى وظيفته التي خلق لها، بذلك النور.

وكما أن نور الهداية له مظهران: تدبيري وابتلائي، فكذلك الهداية في كل ذلك، هداء تدبير وهداية ابتلاء.

وسأفصل القول في (الهداية والضلال في القرآن الكريم) في بحث قادم إن شاء الله.



أخفى

الإخفاء، عكس الإظهار، فإظهار الشيء: إخرجه من الغيب إلى الشهادة، أما إخفاء الشيء فإخرجه من الشهادة إلى الغيب.

والإظهار يكون بالنور، أما الإخفاء فيكون بالظلمة. فالله سبحانه وتعالى يظهر عالم الشهادة، أي يخرج من عالم الغيب (وهو عالم خفي) إلى الظهور، فيصبح مشهودا، وهو هذا الإخراج يكون بالنور. وحين يأذن الله لشيء أن يكون من عالم الغيب فإنه يدخل في الظلمة.

أكاد أخفيها:

وقد جاء فعل الإخفاء مسندا إلى الله سبحانه وتعالى، في موضع واحد، وهو قوله: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ). فالله قد أخفى الساعة عن خلقه، و(كاد) من أفعال المقاربة، فقولك: كاد زيد يفوز بالمرتبة الأولى، يعني أنه قرب فوزه بالمرتبة الأولى، فلم يكن بينه وبين ذلك إلا خطوة، ولكنه لم يفز. وعليه فقد أشكل قوله (أكاد أخفيها) على المفسرين، ولهم تأويلات شتى.

والذي يبدو لي والله أعلم أن المعنى: أكاد أخفيها من عالم الغيب، فالساعة موجودة وهي في كتاب مبين، وسيجليها الله لوقتها، فهي مخفية عن الخلق جميعا، وقد جعلها الله الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وهو الأجل المسمى الذي تتغير فيه السنن والأقدار، ولذلك لم يعلمه أحد من خلقه سواه.

فالمراد في الآية: إخفاؤها حتى من عالم الغيب، ولكن ذلك لم يحدث، فهي موجودة في عالم الغيب، وستظهر حين يأذن الله.



والله سبحانه وتعالى بيّن في كتابه أنه عالم الغيب والشهادة، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يستطيع أحد من الخلق أن يخفي على الله شيئاً، فالله يخفي ما شاء عن خلقه، ويظهر لهم ما شاء، أما خلقه فيعجزون عن ذلك.

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ)، ويقول المؤمنون: (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ). وقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، وقال: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)، وقال: (وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ)...

فالله على كل شيء شهيد، يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه شيء، بل يشهده، سبحانه وتعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).



السر وأخفى:

وقد بينت في بحث (الغيب والشهادة في القرآن الكريم) دلالة (الأخفى) في قوله: (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)، فالسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره، والأخفى من السر هو ما يضمره في نفسه. قال تعالى: (وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا)، فسماه سراً، وقد أطلع عليه النبي غيره من الناس. فهذا هو السر. أما الأخفى فهو ما يكتمه الإنسان في صدره ولا يظهره لأحد من الخلق.

ومن ثم فمراتب إبداء القول ثلاثة، هي:

الأول: إخفاؤه، وهو يعني إضماره في النفس دون أن يطلع عليه أحدا من الخلق.

الثاني: إسراره، وهو يعني أنه أطلع عليه غيره، وطلب منه إخفاءه وعدم إعلانه.

الثالث: إعلانه، وهو الجهر بالقول.

قال تعالى: (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ).

فإسرارهم هو حديث بعضهم إلى بعض بما يخططون وما يأترون. كما في قوله أيضاً: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ)، فسمى قولهم لشياطينهم: إسرارا.

وقال تعالى: (وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ
مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)، فهم أسروا هذه النجوى،
وتحدث بها بعضهم إلى بعض.

وقال تعالى: (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ)، فبين علمه بما في السماوات وما في
الأرض من أشياء، وعلمه بما يسر الناس ويجهرون، وعلمه بما يخفون
في صدورهم ويضمرون.

وقال: (وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بَدَاتِ الصُّدُورِ)،
فقوله (إنه عليم بدات الصدور)، استدلال بعلمه بما هو أخفى من
السِرِّ، وهو ما في الصدور، فإذا كان يعلم ذات الصدور، فكيف لا يعلم
ما يسرون أو يجهرون.

ولما كانت دلالة الإسرار، هي إسرار القول إلى الغير، نجد أن
القرآن الكريم إذا استخدم الإسرار بمعنى (الإخفاء) يقيده بالنفس،
فيقول: أسره في نفسه. كقوله: (فَأَسْرَهَا يُوَسِّفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا
لَهُمْ)، وقال: (فَيُصْنِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ).



أخرج

الدلالة اللغوية:

قال في مقاييس اللغة: الخروج أصلان، أحدهما يدل على النفاذ عن الشيء.

وقال الراغب في المفردات: (خَرَجَ خُرُوجاً: برز من مقرّه أو حاله، سواء كان مقرّه داراً، أو بلداً، أو ثوباً، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة).

ولم يعرض اللغويون لمفهوم (الإخراج) المسند إلى الله بمعنى مختلف عن دلالة الخروج،

وقال البيضاوي في تفسير قوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ): (وخروج الثمار بقدرته الله تعالى ومشئته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكميياتها على المادة الممتزجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال، صنائع وحكم يجدد فيها لأولي الأبصار عبيراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة).

وقال الحرالي: {فأخرج} من الإخراج، وهو إظهار من حجاب، وفي سوقه بالفاء تحقيق للتسبب في الماء) إنقله البقاعي في نظم

ففسر الإخراج بالإظهار من خفاء.

مفاعيل (أخرج) المسندة إلى الله في القرآن الكريم:

(أخرج) المسندة إلى الله سبحانه وتعالى، جاء في القرآن الكريم

لها ستة مفاعيل، على النحو التالي:

(١) إخراج الموتى من الأرض، كقوله: (وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)، وقوله: (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى).

(٢) إخراج الحي من الميت، والميت من الحي، كقوله: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ).

(٣) إخراج ضحى السماء: (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا).

(٤) إخراج ماء الأرض ومرعاها ونباتها، ورزقها، وزينتها،...، منها: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)، وقوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا)، وقوله: (فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا)، وقوله: (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)، وقوله: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ).

(٥) إخراج الخبء في السماوات والأرض: (الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

(٦) إخراج الناس من الظلمات إلى النور، كقوله: (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

(٧) إخراج الإنسان من بطن أمه، كقوله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)، وقلوه: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً)، وقوله: (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً).

٨) إخراج المسلمين للناس، في قوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ).

٩) إخراج دابة من الأرض، في قوله: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ).

١٠) إخراج كتاب منشور يوم القيامة للإنسان، في قوله: (وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا).

١١) إخراج ما في الصدور، وورد مع الأضغان، وجاء في موضعين: (وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ)، (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ). وإخراج المكتوم، في قوله: (وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)، والمحدور: (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ).

١٢) إخراج الإنسان (الناس) من بيته، أو سجنه، أو قريته، كقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم: (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ)، وقوله: (وَأَخْرَجَنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)، وقوله: (رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)، وقول يوسف: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ). وقوله عن مؤمني قوم لوط: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وقوله عن قوم فرعون: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونَ)، وقوله عن

جلاء بني النضير: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ).

(١٣) والكافرون يطلبون من الله إخراجهم من النار: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)، (وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا
أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ).



شرح الدلالة وتطبيقها على الآيات:

الدلالة العامة لـ(أخرج) في كل هذه المواضع، هي: الإظهار التام
للشيء بعد خفائه في شيء آخر.

والدلالة الدقيقة لـ(الإخراج) المسند إلى الله: الإظهار التام لشيء
كان في الغيب واقترب من عالم الشهادة. (فهو أصبح في مرحلة
انتقالية بين الغيب والشهادة).

كما تخرج شيئاً من الوعاء، فيصبح ظاهراً بعد أن كان
مخفياً.

ويقع فعل (الإخراج) على شيء كان مخفياً إلا أنه بين الغيب
والشهادة. فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله، والناس لا يدرون ما سيكون
الأمر. والشهادة هو الشيء الظاهر للخلق. ففعل الإخراج لا يقع على
أي منهما، ولكنه يقع على شيء أصبح في مرحلة انتقالية بين الغيب
والشهادة.

فمثلاً: (الجنين في بطن أمه)، شيء قد انتقل من عالم الغيب،

إلى أوائل عالم الشهادة، وأصبح أبوه وأمه يتوقعون خروجه، بل يتوقعون وقت خروجه، ليصبح ظاهراً ظهوراً تاماً. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يخرج من بطن أمه. فهو الذي أظهره إظهاراً تاماً.

فالجنين وإن كان مخفياً إلا أنه معلوم.

وكذلك البذور التي في بطن الأرض، فالله يخرجها نباتاً. فهي بذور معلومة، ومتوقعٌ خروجها، ولكنها لا زالت مخفية، في مرحلة انتقالية من الغيب إلى الشهادة.

ف فعل (الإخراج) المسند إلى الله سبحانه وتعالى، يقع على الشيء الذي أصبح في طريقه من عالم الغيب، إلى عالم الشهادة، وقد بدت بوادر ظهوره إلى عالم الشهادة، فيكون الإخراج له: إظهاره إظهاراً تاماً، ولو شاء لم يظهره.

ومن ذلك إخراج ما في الصدور، فالغالب أنه يقع على أمور في الصدور بدت بوادرها، ولكن أصحابها يخفونها، فالله يظهرها، ويكشفها كشفاً تاماً، كالأضغان، فالأضغان تبدو بوادرها للغير، والله هو الذي يخرجها إذا شاء، وقد جاء في سياق فضح المنافقين، وإخراج الله أضغانهم كشهادة الله بكذبهم، أي أنه سيبين ذلك ويظهره. فالله وعد المؤمنين أن يشهد بكذب المنافقين، أينما كانوا، وأن يخرج أضغانهم.

و(إخراج الناس من الظلمات إلى النور)،

تحدثت عنه في المبحث الثاني، وبينت أن الظلمات هي عالم الغيب بظلماته الثلاث، وأن النور المقصود في الآية هو نور الغاية لا نور

الهداية، وأن هذا الإخراج سيكون حين يدخل المؤمنون الجنة، فهي النور الكامل، الذي يخرج الله المؤمنين إليه، بعد رحلة طويلة في عالم الظلمات، وانتقالهم من ظلمة إلى ظلمة.

(إخراج الموتى من الأرض):

تحدثت عن هذا في بحثي: (الفاظ الإحياء والإماتة في القرآن الكريم). وبينت فيه أن القرآن الكريم يميز بين مرحلتين، هما: الإخراج والخروج، فالخروج هو خروج الناس من أحداثهم بعد البعث، والإخراج هو الإنشاز، أي: إعادة خلق الموتى، بإنباتهم بالماء، كما يخرج الله النبات من الأرض، حيث ينبت بالماء، وهذا ما تبينه كافة الآيات التي تتحدث عن إخراج النبات بالماء.



والحديث عن كل هذه المواضع خارج إطار هذا البحث، ولعلي أفصل القول فيها في بحث آخر.



أقبر، أعاد في

الإقبار، والإعادة في الأرض، فعلان أسندا إلى الله، ويراد بهما أن الله سبحانه وتعالى كما أخرج الناس من الأرض إلى الدنيا، فإنه يخرجهم من الدنيا، فيعيدهم في عالم الغيب.

أقبر: (ثم أماته فأقبره)

ورد الفعل مرة واحدة في قوله تعالى: (قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ).

قوله (فأقبره)، قال المفسرون: (أي: جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراما له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله السباع والطيور)، وهذا لفظ الشوكاني.

وقال ابن عاشور: (وإسناد الإقبار إلى الله تعالى مجاز عقلي لأن الله ألهم الناس الدفن كما في قصة دفن أحد ابني آدم أخاه بإلهام تقليده لفضل غراب حضر لغراب آخر ميت حفرة فواراه فيها، وهي في سورة العقود، فأسند الإقبار إلى الله لأنه ألهم الناس إياه. وأكد ذلك بما أمر في شرائعه من وجوب دفن الميت).

ويبدو لي أن لفظ (أقبر)، ليس: صيِّره ذا قبر، بل معناه: أعاده في الأرض، فسواء وضع الميت في قبر أم لم يوضع، فإنه إذا مات فسيرد إلى الأرض، ولو أحرق بالنار، ولو أكلته السباع، فسيرد إلى الأرض، فالله يعيده فيها، وهذا إقباره. وليس المعنى أنه جعله ذا قبر (القبر

المعروف). بل جعل الأرض قبراً له، كما قال: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا). وبيّن أن أنظمة الأرض تحفظ جسم الإنسان، وحتى ما نقص منها فإنه في علم الله سبحانه وتعالى: (قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ).

والكافرون يقولون: (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)، أي: عدنا فيها فغبنا، وأصبحنا رميماً في ترابها، فكيف نخلق من جديد؟

وسياتي يوم فتخرج الأرض أثقالها، وهي الأمانة التي حملتها، وأمرها الله أن تحفظها، وهي الموتى، ومنهم الجن والإنس: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)، وقال: (يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا).

فالله أقبر الإنسان، أي: أعاده في الأرض، وقضت سننه أن تكون الأرض قبراً له، وأوحى الله إلى الأرض أن تحفظه، حتى يأتي أمره، فتخرج الأرض أثقالها، وتتشقق عن الناس، فينبتون كما نبت أصلهم الأول أول مرة.

وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا)، فالآية تتحدث عن ثلاثة مظاهر: تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى. وهذه المظاهر الثلاثة هي ما سيكون حين تقوم الساعة، فيسير الله الجبال، وتقطع الأرض، أي تتشقق، ويحيي الله الموتى، فيكلمهم بعد موتهم. وقد أشار إلى الثلاثة في قوله: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ

فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا).

فمعنى الآية: ولو أن قرآنا قضى الله أن تقوم به الساعة فتسير الجبال وتقطع الأرض ويبعث الموتى فيكلمون، لكان هذا القرآن، الذي نزل، وفيه علم الله. ولكن قضى الله سبحانه وتعالى أن الأمر لله، أي: أمر قيام الساعة لله، حين يأذن الله فيجليها لوقتها.



أعاد في:

استخدام القرآن الكريم للفظ (الإعادة):

لفظ الإعادة المسند إلى الله سبحانه وتعالى، جاء بثلاثة تراكيب،

الأول: إعادة الخلق، كقوله: (بِإِدْأِ الْخُلُقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ).

والثاني: الإعادة في، وهي آيات الباب. وقد جاءت في ثلاثة مواضع: موضعين يخاطب الناس، ويبين لهم أنه يعيدهم في الأرض، وقوله: (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَآجًا)، وقوله: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى). والموضع الثالث يبين للناس قدرته على إعادتهم في البحر وإن نجوا منه، قال تعالى: (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا).

والثالث: الإعادة، مطلقا، وجاءت في قوله: (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى).

فإعادة الشيء هو رده كما كان، وإعادة الخلق: الإنشاء الثاني لأول خلق. فهو ليس بخلق جديد، ولكنه إنشاء آخر ل(أول خلق) نفسه. (راجع بحثي: من أفعال الخلق في القرآن الكريم).

وأما الإعادة في الشيء، فيقصد به: إخفاؤه بعد أن كان ظاهراً، تقول العرب: أعاد السيف في غمده، أي: أخفاه بعد أن شهره وأبرزه، وقوله: (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ

وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا)، أي: يردوكم فيها، فملة الكفر هي ظلمة، والإيمان نور، فالعودة في ملة الكفر إخفاء في ظلمته. وقوله: (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا أُوَاهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)، فهم يعادون في ظلمتها، وهم لا يخرجون منها، فيبقون في ظلمة جهنم.

يعيدكم فيها:

وآيات الباب: (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا)، وقوله: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى).

فقوله: (يعيدكم فيها)، أي يعيدكم في ظلمة الأرض، فيخفيكم بعد أن ظهرتم وأصبحتم من عالم الشهادة، فإن الله يردكم فتكونون من عالم الغيب. وعكس (الإعادة في): الإخراج، ولذلك قال بعد ذلك: (ويخرجكم)، (ثم نخرجكم).

فقد جعل الله الأرض كفاتا، فهي الأم التي يكون الإنسان في بطنها، حتى يخرجها الله منها، كما أخرجها من بطن أمه. فعندئذ تلقي الأرض ما في بطنها وتتخلى عنهم، حيث تسلم أمانتها إلى ربها، وتنتهي مسؤوليتها عن حمل تلك الأثقال: (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (۴) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ).



يعيدكم فيه:

أما قوله: (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا).

قال بعض المفسرين كالبقاعي والشوكاني وابن عاشور: (أن يعيدكم)، أي: أن يوجد فيكم الدواعي للعودة إلى البحر، فتغرقون. ورأى بعضهم أن (في) بمعنى (على)، قال الشوكاني: (أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ) أي: في البحر مرة أخرى، بأن يقوي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى ركوبه، وجاء بـ(في) ولم يقل (إلى البحر) للدلالة على استقرارهم فيه). وقال الألويسي: (أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ) أي في البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم بركوب الفلك، لا في الفلك لأنها مؤنثة، وأوثرت كلمة (في) على كلمة (إلى) المنبئة عن مجرد الانتهاء؛ للدلالة على استقرارهم فيه).



وأرى أن المعنى: يعيدكم في البحر، ولأن هذه الإعادة ستكون آخر عهد الإنسان بالحياة، فقد استخدم لفظ (أعاد في)، والمعنى: يعيدكم في البحر، فتغرقون فيه، فتموتون. ولذلك قال: (فيغرقكم)، ولم يصف الريح بالقاصف إلا في هذا الموضع، فالريح القاصف ريح مدمرة، لا ينجو منها ركاب البحر إذا عصفت بهم، بل تغرقهم.

فلما كان المشهد بياناً لحالة الغرق، وموت راكب البحر، كانت الآية دالة على الموت، فلفظ (يعيدكم فيه) جاء على معناه، وهو:

يعيدكم في البحر فيخفيكم بالموت، فترجعون إلى عالم الغيب،
وتكونون في بطن الأرض. فكأن العودة في البحر هي عودة في الأرض.
فجرت هذه الآية مجرى الآيات السابقة، (يعيدكم فيها)،
فمعنى أن الله يعيد الإنسان في الأرض، أي: يخفيه في بطنها، بعد أن
كان ظاهراً على ظهرها، وبذلك يكون الإنسان في عالم الغيب حتى
يخرجه الله من بطن الأرض مرة أخرى.